

سَيِّدِي حَمَر

ذكريات الشيخ محمد أبو طير

تحرير
بلال محمد شالش



الفصل الرابع

**المفاصلة: الجماعة الإسلامية في
السجون**

المفاصلة: الجماعة الإسلامية في السجون

سجلات سجن الرملة:

الغرفة الأولى التي نزلت بها عند وصولي إلى سجن الرملة، لم تكن مريحة أبداً؛ تريد أن تباشر عبادتك، أن تقوم للوضوء صباحاً، والقوم لا يصلون وأي حركة تزعجهم، تريد أن تجهر بالصلاة صباحاً مشكلة. غربة للدين ما مثلها غربة، وكيف تكون الحال والرجل يعير بصلاته وصيامه كما تُعير العاهرة؟ ولقد والله عُيرنا بهذا، وصبرنا كما يقولون صبر الخشب تحت المناشير. طلبت من الإخوة في تنظيم فتح أن أنتقل إلى غرفة شبابها يقيمون صلاة الجماعة، لكن الطلب لم يتحقق بسهولة. وبعد حين، وفي أواخر سنة 1975، انتقلت إلى غرفة أخرى، هي بكل سلبياتها أفضل بكثير من الغرفة السابقة؛ لأن فيها شباباً يحافظون على صلاة الجماعة، ولديهم جاهزية للتعامل مع من لديه القدرة على الاهتمام بهم، كانت لديهم حمية للإسلام، ولكن النضج كان غائباً عنهم، والمعرفة ليست بالمستوى المطلوب، والحرب عليهم ضارية؛ لأنهم كسروا عناد من طمع بهم من الماركسيين.

في هذه الغرفة، اجتمعنا للعبادة ليس غير، ولم يكن في نيتي أن أخرج من حركة فتح، ولم يكن في واردي أن أشكل جماعة إسلامية. لكنني، ومع الأيام، ونتيجة للممارسة اليومية، تكشف لي الكثير بحكم عملي في التنظيم وكوني من كوادر قيادته، بل عضو لجنة مركزية في التنظيم داخل السجن. وذات مرة كتبت بياناً روسته بالبسملة والحمد والثناء على الله والصلاة على النبي، فاحتج القوم على ذلك، وقال أحدهم: هذا بيان ديني. وما كان البيان إلا عن العمل التنظيمي وعن اللائحة الداخلية، لكن الترويسة بالبسملة أزعجتهم. ولم أبه لذلك، فتنظيم فتح في سجن الرملة كان تنظيمياً على المزاج، وإذا كان أحدهم عضو لجنة مركزية يعمل معك، وإن لم ينجح في الانتخابات ينأى بنفسه جانباً، ومنهم الماركسي والعلماني والقومي والبعثي....

بقيت في تنظيم فتح لأواخر سنة 1976، وما عرفت إلا المشكلات، فمن يبقى معهم يتجرأون عليه. وخلال هذه الفترة، كنت أعب قراءة الكتب عباً، وكنت أريد أن أسمن نفسي وأحصنها. أتيت بكتب سيد قطب رحمه الله، فقرأت الظلال، وكتاب المعالم، ومقدمة ابن خلدون، وقرأت مبكراً للشيخ العلامة يوسف القرضاوي الحلال والحرام وفقه الزكاة، وقرأت للأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي كبرى اليقينيات الكونية،

ونقض أوهام الجدلية المادية، وقرأت لعباس محمود العقاد كتباً تبدد أوهام الشيوعية وتدحض أكاذيبها، وقد كان سليط اللسان ولاذعاً في الرد عليهم، وقرأت فيما بعد جميع كتب سيد قطب وأخيه محمد قطب رحمهما الله، وقرأت للإمام الشهيد حسن البنا¹، وما كنا نعرف عنه شيئاً قبل السجن، بل كنا نعرف سيد قطب عنواناً للإخوان المسلمين.

هذا فراق بيني وبينكم:

من خلال قراءتي لكتاب المعالم²، تبين لي الكثير مما كنت أجهل، حيث كنت أعدُّ لائحةً داخلية للتنظيم، تنظيم فتح، وكتاب المعالم من خلال قراءتي له يقول لي: من أنت حتى تشرع للناس؟ المعالم غيّر الاتجاه والمعلم، مَنْ أنت؟ ووقفت مع نفسي قبل أن تخرج الجماعة للنور، وقلت: يا رجل، مالك؟ وما لهؤلاء الناس؟ وأخذت قراراً بمفاصلة التنظيم، وخرجت إلى من يعنيه الأمر، وبلغت الجميع، حتى الفصائل الأخرى، أن هذه الساعة هي آخر عهدي بحركة فتح، وقلت لهم: ”هذا فراق بيني وبينكم، أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ“، قالوا: يا شيخ أنت الشيخ، شيخ الثورة الفلسطينية. وقد أتتني المحامية لانجر، بمجلة صادرة في بيروت، وفيها صورة للشيخ المعمم أبي طير، وللقدس مع صخرتها يحول بيننا قاطع من السياج، ومكتوب على البوستر، الشيخ أبو طير: حيّ على الثورة³. راودوني كثيراً، وكان فيهم بسام السائح، وسعيد الددو، وأبو ماهر سرحان، وسواهم، فكان الجواب، لن أكون شاهد زور ضدّ الإسلام ما حييت، وقلت عبارة مشهورة قرأتها عن السلف الصالح: ”لأن أكون ذنباً في الحقّ، أحبّ إليّ من أن أكون رأساً في الباطل“. والحمد لله ما كنت ذنباً في يوم من الأيام، فلما كنت فيهم وجيهاً ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾⁴، ولما فارقتهم قال أحدهم بيتاً من الشعر:

ما زاد حنُونٌ في الإسلام خردلة
ولا النصرارى لها علم بحنون

¹ حسن أحمد البنا (1906-1949): مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها الأول. ولد في المحمودية بمصر، وحفظ القرآن في سنٍّ مبكرة. تخرّج من دار العلوم سنة 1927، وعيّن مدرساً في مدينة الإسماعيلية، وأسس فيها جماعة الإخوان المسلمين سنة 1928. نادى بشمولية الإسلام. وجّه الإخوان المسلمين للقتال في فلسطين سنة 1948، وجّه المئات من المتطوعين لهذا الغرض. اغتيل في 1949/2/12. انظر: حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية (بيروت: المكتب الإسلامي، 1974).

² انظر: سيد قطب، معالم في الطريق (القاهرة: دار الشروق، 1973).

³ انظر: ملحق الوثائق، الوثيقة رقم (1)، ص 493، وخبر نُشر في مجلة فلسطين الثورة في 1975/5/4، وصورة للشيخ أبو طير نُشرت في إحدى مجلات الثورة الفلسطينية.

⁴ القرآن الكريم، سورة هود، آية 62.

فقلت: هذا هو الطريق، وليكن ما يكون.

لقد بدا لي واضحاً أن ما في صدور الجاهلية التنظيمية وأتباعها، من التحامل على الدين وأتباعه، يفور فوراً، ويتميز غيظاً وحقدًا، فحركة فتح داخل السجون إلى أن خرجنا منه سنة 1985، كانت مرتعاً للغزو الماركسي و حرباً على الدين. وكان اليسار هو قبلتها بكل سلبياته، فهو أقرب إليها من الدين الذي يرمونه بالرجعية. ولأن التدين لا يتساق مع سُعار الشهوات، وانحراف الأخلاق، التي تجنح بهم إلى فساد الفطرة، وتمييع الإرادة، وتجعل المتعة والراحة في النفس الأمانة بالسوء، ما دام الدين بعيداً عنها لا يحصنها من الفلتان. وإن أولئك الذين وجدوا في السجن فراغاً قاتلاً، هيهات أن يملأه لهم إلا اللجوء إلى الله والاحتماء بحماه.

لقد كانت فتح — بكل مرارة — واجهةً يختبئ من ورائها اليسار، في تنفيذ سياسة الغزو الفكري، بثوب أنهم جميعاً فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وأن الجماعة الإسلامية إفراز غير شرعي على صعيد العمل الفلسطيني، وهي ترى في حضورها بديلاً عن منظمة التحرير، فلا بد من محاربتها، وهم يقصدون من وراء ذلك الحرب على الدين وعلى الإسلام وأهله.

إن ما هو معروف عن اليسار، وما عرفته أنا عن قرب، أنه انتهازي بجميع مسمياته وفصائله، فلئن عاب على الرجعية ولاءها للغرب، وهم يقصدون الإسلام، وهم بذلك يفترون، فما لهم لا يعييون على أنفسهم عمالتهم للاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية، وولائهم له وقتذاك.

لقد كانوا جميعاً يتقاسمون ساحة العمل الوطني ويتصارعون عليها، ويتفاوتون في ذلك، ولا يسمحون للإسلام تحت أي مسمى أن يكون له الحضور على الساحة الفلسطينية خوفاً من المنافسة، حتى قال ذات مرة جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبية، في حديث له مع عرفات: لو كان اسمي علياً أو محمداً لكان حظي من الجماهير أكثر مما عندك.

وصحيح ما قاله جورج حبش، لأن طبيعة التدين عند العوام ترى في اسم جورج حاجزاً ومانعاً دون الالتحاق إلى صفوف الجبهة الشعبية، وهم يجهلون كذلك فلسفتها. ولم يحظ اليسار كله بهذا الحضور على قلته إلا بتغريب الناس وتوريطهم من خلال السجون، فكم من شباب دخلوا السجون وهم يُصلون، ثم تركوا الصلاة والصيام

تحت ضغط الإرهاب الفكري، الذي كان يمارسه اليسار، وأدى بكثير من أتباعه إلى حالة من ضياع الشخصية وذوبانها.

الجماعة الإسلامية:

من في السجن من قادة الفصائل أزعجهم هذا، ولهم تجربة مع جماعة إسلامية قامت في سجن عسقلان، أنشأها الأخ القائد جبر علي عمار، وهو ضابط في قوات التحرير الشعبية، التي هي بقايا جيش التحرير الفلسطيني. وظن قادة الفصائل، وخاصة اليسار، أنني في الطريق إلى جماعة إسلامية. وما كان هذا في واردي، بل كل ما نريده ونبغيه هو أن نجلس للقرآن، ونتعلم ديننا، وأن نتخلص من المشكلات التي تقتل وقتنا. ولا تستطيع أن تجمع بين متناقضات التنظيم، وأن تتصدى للفكر الماركسي من خلال النقاش أو تعبئة من معك إلا بالتفرغ، وإلا بمخزون فكري ناضج، يبدد ويدحض ما تقوم عليه الأفكار المستوردة، وهذه فرصتنا، فما العمل؟

أتيت إلى مجموعة من الإخوة كانوا معي في الغرفة، وهم الحاج ناجي أبو نجمة، كان في الخامسة والخمسين من العمر، وكنت في الخامسة والعشرين من العمر، والحاج عمران أبو خلف، وهو قريب من الستين، والحاج سلمان القواسمي، وهو في الخمسين من العمر، وعبد المطلب أبو ارميلة، ومحمد درويش، ومحمود عميرة، وأمين فرحات، ومحمود أبو طير، وصبحي أبو ميالة، ومنصور عبيدية، وقلت لهؤلاء الإخوة، تعالوا نتدارس القرآن هناك في غرفة الأكل بعيداً عن غرفتنا؛ لأن فيها الأخ وليم نصار وسواه ممن لا يروق لهم ذلك. وما إن جلسنا على الطاولة ووضعنا القرآن بيننا، وتعاهدنا على قراءة القرآن، وتعلم أحكامه، والحفاظ على أخوتنا، حتى استنفرت الفصائل، ورمتنا بما لم يكن بالحسبان، واعتدت علينا بالضرب. والحق أننا ما كنا نفكر في جماعة، ولكنهم ومن خلال تصرفاتهم دفعوا بنا إلى الجماعة، ويريد الله أن يسوقنا لهذا الأمر، ويدفعنا إليه شيئاً فشيئاً، حتى تنضج الأمور.

وبعد اعتقالي سنة 1974 كان اهتمام الثورة الفلسطينية بشأن اعتقالي متواضعاً، وعلى استحياء، بينما كان اهتمامها الإعلامي بشأن اعتقال المطران كابوتشي بالغاً ومثيراً ومتحيزاً حتى في هذه. لا يريدون لرجل الدين المسلم — بالرغم من اعتراضي على رجل الدين — أن يطغى على مصطلحات الثورة، وأشكر للشيخ حسن خالد، مفتي

الجمهورية اللبنانية، رحمه الله، تضامنه مع اعتقالي، والذي قضى نحبه شهيداً إن شاء الله، في انفجار سيارة أمام بيته، فقد دعا إلى اعتصام جماهيري تضامناً مع الشيخ أبو طير في العاصمة اللبنانية بيروت.

نواة الجماعة الإسلامية في سجن الرملة:

الحاج ناجي أبو نجمة: حارس من حراس المسجد الأقصى منذ أيام الأردن، كان يتردد على زاوية للصوفية يديرها الشيخ عبد الكريم الأفغاني، ودخل السجن في مجموعة لحركة فتح، وكان عابداً قائماً على إخوانه بالرغم من عرجه، ولما ذهب للحج أول مرة، لماضيه في الفتوة ما صدق الناس أنه زاهب للحج، وكانوا يسخرون منه بهذه الكلمات: ناجي رايح للحج؟ قال، رحمه الله: وصبرت على ذلك من أجل الله، ومات بعد خروجه من السجن بعد أن أمضى خمس عشرة سنة.

الحاج عمران أبو خلف: من القدس كذلك، ودخل السجن منتمياً لفتح، وكان بمنزلة الوالد لأنه يعرف أبي، وعملاً في الدقاقة والبناء، ومات في السجن على إثر جلطة قلبية لم تمهله.

محمود عميرة: من صور باهر، كان قد خلع نفسه من قبل من جبهة النضال الشعبي، ولا يعترف بكل هذه الفصائل، وهو حي يرزق.

محمد درويش: من العيسوية من قوات التحرير الشعبية، وهو من أكثر الناس حرصاً على دعوته، وكان مخلصاً وخدمياً لإخوانه، وهو من اعتنى بالشيخ أحمد ياسين⁵ في سجنته الأولى قبل 1985 في سجن عسقلان، كان يقوم عليه، ويحممه،

⁵ أحمد إسماعيل ياسين (1938-2004): ولد في قرية الجورة قضاء المجدل. هُجّر وأُسرته لقطاع غزة بعد حرب سنة 1948، وتعرض لإصابة رياضية أصابته بالشلل. درس اللغة العربية في مصر وعمل في التدريس والخطابة بغزة. أصبح رئيساً للمكتب الإداري للإخوان المسلمين في قطاع غزة في أيلول/سبتمبر 1967، إثر مغادرة رئيسه السابق إسماعيل الخالدي للقطاع، أحد مؤسسي جمعية المجمع الإسلامي في غزة. اعتقل بتهمة الإعداد للعمل العسكري سنة 1983، وأُفرج عنه في صفقة لتبادل الأسرى مع الجبهة الشعبية - القيادة العامة سنة 1985. عضو المكتب الإداري العام للإخوان المسلمين في قطاع غزة لحظة تأسيس حماس، وأحد أبرز مؤسسيها. اعتقل سنة 1989 مع المئات من كوادر حركة حماس، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. أُفرج عنه سنة 1997 بصفقة تبادل أسرى مع الأردن، بعد الإفراج عن عنصرين من الموساد Mossad حاولا اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس. يعدُّ "الزعيم الروحي" لحركة حماس. اغتيل يوم الإثنين 2004/3/22 بقصف صاروخي استهدفه بعد خروجه من صلاة الفجر. انظر: عاطف عدوان، الشيخ أحمد ياسين: حياته وجهاده (غزة: الجامعة الإسلامية، 1991)؛ وأحمد منصور، الشيخ أحمد ياسين: شاهد على عصر الانتفاضة (بيروت: الدار العربية للعلوم، 2003).

ويغسل ثيابه، ومات رحمه الله سنة 2010، وكان يعاني من مرض القلب، لكنه من المتميزين حتى اللحظات الأخيرة، وهو ممن أحببتهم حباً جماً.

غالب درويش: شقيق محمد درويش، وهو كذلك من قوات التحرير الشعبية، والرجل مخلص لدينه ودعوته، وبقي وفاقاً على عهده، وكنيته (أبو الوفا).

أمين فرحات: أبو عبد الله رحمه الله، شابٌ التقية في معسكر دوما في سورية، وجمعنا الأيام والاعتقال ثانية داخل السجون، وكان من الإخلاص بمكان، والشيخ أحمد ياسين، رحمه الله، حضر زفافه بعد خروجنا من السجن سنة 1985. أمين ينتسب لعائلة يقال لها "السدمير"، تعود إلى عائلة ادكيدك من الخليل، لكنه من سكان القدس ومواليدها، وعم أمين هو الشهيد عبد القادر السدمير. مات أمين رحمه الله، بالسرطان في أثناء حرب الخليج سنة 1990، حيث كنت في السجن لسنة أشهر إداري، ولم يحضر جنازته إلا بضعة رجال؛ لأن صواريخ صدام التي أطلقت على الكيان الصهيوني، فرضت منع التجول وقتها.

الحاج سلمان القواسمي: وله اسم شهرة آخر هو عبد العفو القواسمي، رجل فاضل قوام ليل، مستقيم، وخرج في تبادل 1985، وهو من جبهة النضال الشعبي.

عبد المطلب أبو ارميلة: دخل السجن وأوذني حتى غاب عن الوعي، ونقل إلى مستشفى هداسا من شدة التعذيب، وخرج بعد أن أمضى عشر سنوات، وهو من النضال الشعبي.

منصور عبيدية: من القدس، ودخل السجن بسبب انتمائه لفتح، وعمل في جهازها العسكري.

صبحي أبو ميالة: من القدس، ودخل السجن تحت إطار الجبهة الشعبية، ثم فاصلهم.

محمود عودة أبو طير: ابن عمي، ومن مجموعتي، وهو من فقد يده اليسرى وأربعاً من أصابع يده اليمنى، وتغلب على هذه المصيبة، وتزوج وقاد السيارة من بعد، ومات، رحمه الله، في 2007/12/1.

هؤلاء جميعاً هم نواة التشكيل لجماعتنا في سجن الرملة خلال الفترة 1976/1977. وقد تأمرت الفصائل علينا وبيتوا لنا أمراً، فكان الاعتداء الآثم الظالم منهم علينا،

وضربوا من ضربوا منا وسالت منا الدماء على أيديهم؛ لأنه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾⁶. ضربونا، وبعدها أعلننا عن جماعتنا، وخرجنا من القسم الذي ضربنا فيه إلى قسم آخر، اسمه بالعبرية ”الكلايه“ أي العام، وكان لنا إخوة فيه من داخل الخط الأخضر؛ من الناصرة والطيبة والطيرة والنقب، ومن القدس كذلك، وشكلنا وإخواننا هؤلاء أكبر جماعة في سجن الرملة. وكان اهتمامنا منصباً على الجنائين من العرب، الذين دخلوا السجن على خلفية قتل شرف: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ﴾⁷، بينما كان الثوار الذين ضربونا ينظرون إلى هؤلاء الجنائين نظرة دونية، والصحيح أننا نجحنا في تربيتهم وإعدادهم، ومن خرج منهم من السجن استقامت حاله.

• إخواني من القدس والداخل هم الأخ زكريا نجيب⁸، الذي دخل السجن لمرات آخرها في سنة 1994، والذي حكمت عليه المحكمة 22 سنة؛ لأنه أوى المجموعة التي خطفت الجندي الإسرائيلي، فاكسمن، والأخ أبو عبد الله زكريا هذا هو من انتقم لنا ممن ضربونا، حيث تربص هو والأخ نبيل مخزومي من الناصرة بمن اعتدى علينا، فضربوهم وكسروا أيديهم بالعصي، وأخيراً خرج في صفقة وفاء الأحرار وأُبعد إلى غزة.

• الأخ نبيل مخزومي، من الناصرة، وهو الآن يتنقل ما بين سورية ولبنان، خرج من السجن في تبادل الأسرى سنة 1985، وكان محكوماً بالمؤبد.

• الأخ الشيخ فتحي ناصر، من الناصرة، وخرج من السجن في عملية التبادل سنة 1985، وهو رجل له حضوره واحترامه، وكان محكوماً بالمؤبد أيضاً.

• الأخ تاج الدين الخطيب، من الناصرة، وخرج في عملية تبادل 1985، وهو من الإخوة العاملين والملتزمين.

• الأخ موسى قشوع، من الطيرة (طيرة المثلث)، وهو من الرجال المشهود لهم بالحكمة والعدل والاستقامة، وخرج في عملية التبادل سنة 1985، وكان محكوماً بالسجن

⁶ القرآن الكريم، سورة البروج، آية 8.

⁷ القرآن الكريم، سورة هود، آية 88.

⁸ زكريا لطفي نجيب (1956-): ولد في مدينة القدس، واعتقل في 13/10/1994 لمشاركته في عملية اختطاف الجندي الصهيوني فكسمن، حيث قدم المأوى والطعام للمجاهدين. حكم عليه بالسجن 22 عاماً. خرج في صفقة وفاء الأحرار في 18/10/2011، وأُبعد إلى قطاع غزة.

المؤبد. وكذلك الإخوة بلال مصاروة وغالب حمدان من الطيرة نفسها. هؤلاء جميعاً ما عدا بلال مصاروة كنا مجلس شورى للجماعة. ومن أول سنة 1977 إلى الشهر الأول من سنة 1980 ونحن في سجن الرملة، وقد نضجت خبرتنا ونضج الوعي عندنا، وتبين لنا من هم أقرب الناس للحق، فنحن معهم، من الجماعات الإسلامية.

أختم لهذه المرحلة التي عشناها في سجن الرملة، أنه جرت محاولات لتغيير قناعاتي والعودة بي إلى تنظيم فتح، وكان آخرها مع الأستاذ عبد الرحيم العراقي من طيرة المثلث، وهو رجل فاضل، حاول أن يثير في الحمية، وأني محسوب على الثورة وعن موقعي في صفوفها، وبقيت على موقفي، وانتهى الأمر إلى غير رجعة، وكلام الله يتردد على لساني: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾⁹.

ومن خلال الأيام التي مرت علينا في سجن الرملة، ومع حساسية الاستفزاز من خلال هذه النقلة، وقف على باب غرفتنا خالد طنطش، من فتح، وهدد وتوعد أحد الإخوة، فما صبرت على تصرفه، وخرجت إليه في ساحة القسم، وواجهته قائلاً: يا خالد: مَنْ أَنْتِ حَتَّى تَهْدِدُنَا فِي غُرْفَتِنَا؟ خذ حذرك، قد جئتكَ ضارباً، فلكمته ضربة من قبضة يدي على وجهه، ثم أخرى، وتدخل من في الساحة وحجزوا بيننا، وهو من الطول 190 سم ويزيد. بعدها غدر بي وأنا راجع من غرفة الطعام، لكنه لم يفلح في إيذائي، وإن أصابني بما لا ضرر فيه. وعلى الرغم من كل هذا، فقد عرقلت تنفيذ صفقة التبادل سنة 1985 لساعات، من أجل إبقائه في القدس؛ لأن الاحتلال كان يريد طرده منها.

ويوم أن كنا في سجن الرملة، حاولت إدارة السجن أن ترغمني على العمل، وعلى الخصوص في نسج شبك الدبابات، فرفضت ذلك، ومع أن العمل إلزامي فقبلت مني إدارة السجن أن أعمل في صناعة الإصبات، ولما رحلنا من هذا القسم بعد الاعتداء علينا إلى قسم آخر، انتهت الظروف التي كانت تجبرني على العمل، وقد كان فراقاً لا رجعة إليه.

وحتى نأتي على الصورة بتمامها، كانت لنا مجموعة أخرى ذكرتها من قبل وهم الإخوة خالد عبد الله أبو طير، وكنيته أبو العز، ومحمد محمود أبو طير، وكنيته أبو زهير، ومعهم عقاب أبو طير، حيث إنهم دخلوا السجن بعد استشهاد الأخ علي العقابنة من

⁹ القرآن الكريم، سورة الأعراف، آية 89.

خاراس، وحكموا عليهم بأحكام متفاوتة، بتهمة تهريب السلاح، ونقله من غور الأردن إلى القدس وما حولها، ودخل السجن كذلك أخي عمر لستة أشهر، قضاها عندي في سجن الرملة.

كان أبو زهير محمد محمود أبو طير يتردد على المحكمة المركزية في شارع صلاح الدين في القدس، وطلبوني مرة بدلاً منه؛ لأن اسمي مطابق لاسمه، فذهبت في بوسطة إلى القدس، وكانت الأمور سهلة لمن أراد أن يهرب. فطلبت منه ثانية إن طلبوه للمحكمة أن يخبرهم أن محمد أبو طير في قسم آخر، وفعلاً تم ذلك، لكن الخطأ الذي لا يبرر أنني أفشيت سري لرجل وثقت به، وما إن استدعيت للبوسطة، وإذا بضابط أمن السجن يقول لي: إلى أين أيها الشيخ؟ قلت له: بوسطة إلى القدس، قال: أنت محكوم 13 سنة، والمطلوب للبوسطة محكوم 5 سنوات. لست أنت المطلوب، فأصابني إحباط، ورجعت كسيراً، وقد رتبت للهروب جيداً. وهذا الشخص نفسه الذي أفشيت سري له، وفي مرة أخرى، عندما حاولت العمل في مطبخ السجن توطئة للهروب، لم أعلمه بنيتي، لكنه كان مسؤولاً عن العمال في المطبخ، ودخلت وإياه على ضابط القسم حتى يزكيني للعمل، وهو واقف من خلفي، فلما دخلنا أعطى إشارة بعيني للضابط ألا يقبلني، حيث كانت مني التفاتة فتأكد لي أنه ”خربان“. لكن وضعه التنظيمي وثقة الناس به، جعلاني أصبر على أذاه، وأخيراً فضحه الله، حتى قال فيه مدير السجن: فلان يريد أن يلعب على الحبلين، يريد أن يمسك التفاحة والكعكة في يد واحده.

ثم إن أبا زهير خرج من السجن بعد أن أمضى محكوميته، وكذلك الأخ الحبيب أبو العز رحمة الله، والأخوان منير أبو طير ومحمود أبو طير، كلاهما دخلا السجن في قضية التخطيط لقتل سمسار أراض، وفعلاً قاما بالتنفيذ، واكتشف الأمر على يد جاسوس آخر، وانفجار الصاعق بيدي محمود، والجميع أفرج عنهم بعد قضاء المحكومية.

الجماعة الإسلامية في سجن عسقلان:

كان سجن الرملة ذا طابع مدني وجنائي، حيث كانت الأقسام خليطاً من السجناء الأمنيين والجنائيين. وكان السجن بسبب هذا الطابع أقل سوءاً من السجون الأخرى، مثل عسقلان وغزة وبئر السبع، وحرية الحركة فيه أيسر وإدارة السجن لا تتدخل في شؤوننا كثيراً، كما هي الحال في السجون الأخرى. فسياسة السجون الأخرى سياسة

إرهابية بامتياز، بالطبع هذا الحال في الأيام الأولى، أما اليوم، فالأقسام الأمنية في السجون المدنية أو الجنائية تتبع سياسة العزل، والعزل هو سياسة الإجمام التي تمارسها مصلحة السجون، بإشراف الشاباك الإسرائيلي. وفي صبيحة يوم الإثنين على ما أظن بتاريخ 1980/2/4 أقدمت مصلحة السجون على نقل أبناء القدس جميعاً من القسمين المذكورين كما أسلفت، إلى سجني عسقلان وبئر السبع. وكان سجن عسقلان وجهتنا أنا وإخواني من الجماعة الإسلامية من القدس. ولأن إجراءات التفتيش تخضع لمزاجية الابتزاز، والإذلال والكرهية، والتشفي والتخريب، فقد بعثوا أغراضنا وملابسنا، وداسوها بالأقدام، وقاموا ببعثرتها على أرض وسخة، وأخرونا حتى جاء الليل قبل أن يضعونا في الزنازين، استعداداً لنقلنا إلى غرف السجن في اليوم التالي.

نمنا ليلتنا في الزنازين، وفي تلك الليلة رأيت ابنتي فلسطين في المنام، تقف بين يدي وتقرأ عليّ هذا الشطر، من الآية: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾¹⁰، فانشرح صدري لهذه الزيارة، وهذه البشارة، وحمدت الله على ذلك. وفي صباح اليوم الثاني بعدما علت شمس النهار، بدأت إدارة السجن بتوزيعنا على غرف السجن، فمن هو مع الجماعة الإسلامية استوعبته غرف الجماعة الإسلامية في عسقلان، وأما أبناء التنظيمات الأخرى، فتنظيماتهم استوعبتهم عندها.

كان للجماعة في عسقلان ثلاث حجرات في قسم (أ) وهي (3+4+5)، وكل جماعة إسلامية في أي سجن من سجون الاحتلال (محاصرة إن لم تكن مقاطعة) من فصائل منظمة التحرير، سمعتها من كوادر فتح يقولون: أنتم إفران غير شرعي على صعيد العمل الفلسطيني، قلت لهم: غرف الجواسيس ومواخير العار التي خرجت من بين ظهرانيكم، ومن صفوف تنظيماتكم، ماذا تقولون فيها؟ وأقولها شهادة للتاريخ: إن هؤلاء الجواسيس كانوا مقبولين على التنظيمات، أكثر من أي فرد من جماعة إسلامية، وصدق الله العظيم، الذي أثبت في كتابه على لسان قوم لوط قولهم في محاربة النبي وآله: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾¹¹.

كانت ظاهرة تشكل الجماعة المسلمة في السجون مُشكلةً عند الثوار، الذين يزعمون أنهم يريدون تحرير فلسطين، ويا ليتهم حرروا أنفسهم من شهواتها، وحرروا أنفسهم

¹⁰ القرآن الكريم، سورة فاطر، آية 2.

¹¹ القرآن الكريم، سورة النمل، آية 56.

من هذا الانسداد والعقم الذي لا يقبل الآخر، كأنهم والأنظمة والحكام العرب من طينة واحدة. كانت ظاهرة الجماعة مزعجة لهم، وغير مقبولة عندهم، حتى ولو كان أفرادها أكرم الرجال، وهم والله كذلك، حتى قالها رجال من فتح عن سياسة الاستقطاب: إن الشيخ أبو طير كالنحل لا "يُهدِّي" إلا على الزهرة الطيبة فيأخذها. والاستقطاب أن تنجح في كسب القلوب لدعوتك، وتحويلها إلى جماعتك. فمن استجاب لدعوتنا ونجحنا في استقطابه، تقوم الدنيا ولا تقعد، ويستنفر التنظيم، وتشحن الأجواء وتبدأ حملة التشكيك في هذا المناضل، ويقذف ويرمى بأبشع الأوصاف، وأنه ذو أخلاقيات سيئة، وربما هو مرتبط مع إدارة السجن، حتى يربعوا هذا المخلوق، ولعلّه يتراجع عن الانضمام إلى الجماعة. ولقد وصلت "عريضة" التنظيمات وطغيانها، مع شباب اقتنعوا بفكرتنا، أن انهالوا عليهم بالضرب، ومارسوا ضدهم ما كانوا يسمونه "الإرهاب الثوري"، وكان من انتسب إلى فتح مكتوب عليه منذ أن ولد، أنه عبد لفتح. نعم، أصبحت فتح صنماً يُعبَدُ من دون الله!! وحال التنظيمات الأخرى كذلك، ولا يجوز الخروج عليها بحال من الأحوال، أما فيما بين الفصائل، فلا حرج في حرية الاختيار، ولربما تحصل مشكلات لكن لا تصل إلى حدّ الصدام، والتنظير للماركسية لا حرج فيه بين الفصائل، أما الإسلام فإنما هي الحرب.

لقد مارسوا الإرهاب على الأفراد حتى قتلوا روح الفداء التي دخلوا بها، وباسم التنظيم وجهاز أمنه، كالحال اليوم في القمع الذي تمارسه أجهزة الأمن في الدول البوليسية. وإذا ما اقتنع فرد بالفكرة الإسلامية، فالاستنفار يبدأ عمله، ويبدأ عمل التنظيم بالترغيب، وإن لم ينفع الترغيب فالترهيب هو البديل، وإثارة الشبهات والإشاعات جاهزة، وسياسة التفريق جاهزة، والحرب على الكتاب الإسلامي بلا هوادة. وبلغت الأحقاد عند الماركسيين، من أبناء الجبهات ومن الماركسيين عند فتح، أن أوقدوا النار في نسخ من كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي وطبخوا عليها، بحجة أنها كتب صفراء، وحصل هذا في سجن بئر السبع في السبعينيات من القرن الماضي، وامتد الحصار على الجماعات الإسلامية منذ أن ظهرت في السبعينيات، إلى أن خرجنا سنة 1985، في صفقة التبادل، وكذلك الحصار على الكتاب الإسلامي.

يقول المجاهد محسن ثابت في كتابه: نشأة الجماعة الإسلامية في سجون الاحتلال، تحت عنوان ”منع تداول الكتاب الإسلامي“¹²:

لقد وضعت عناصر م.ت.ف برامج دراسة لعناصرهم لا يمكن إنجازها في أقل من خمس سنوات، ولم تتضمن كتاباً إسلامياً واحداً، كما أصدرنا قراراً يُمنع فيه أخذ أي كتاب إسلامي، من مكتبة الجماعة الإسلامية إلا بإذن.

كما كانوا يحاولون دون حصول أي عنصر من عناصرهم، على أي كتاب إسلامي من المكتبة العامة، وقد عاقبوا كل من اخترق هذه القرارات، حتى لجأوا إلى مصادرة عدة كتب إسلامية وتمزيقها، حصل عليها عناصرهم دون موافقتهم، مثل الإسلام ومستقبل البشرية للدكتور عبد الله عزام¹³ وخصائص التصور الإسلامي للأستاذ الشهيد سيد قطب، وكثير من الكتب الأخرى، حتى إنهم لجأوا إلى وضع الكتب الإسلامية، في أكياس تحت أسرّتهم في قسم ”3“ في سجن جنيد، فقد وجد تحت سرير واحد، يعود للمدعو جمال السلامين، من السموع عدة أكياس، وحين سئل عن هذه الأكياس التي وضعها تحت سريره قال: لا يوجد لها مكان في المكتبة العامة، مع العلم أنّ المكتبة العامة يوجد فيها مجال لمثل هذه الكتب، بل لأضعاف مضاعفة منها.

كما لجأوا إلى أسلوب الإدعاء، بأن الكتاب مشغول ويقرأ فيه أحد الشباب، وهو في الحقيقة موجود عندهم في المكتبة، حتى هذه الكتب تراكم عليها الغبار، وحيل بين القارئ وبينها بالحديد والنار، ولم تسلم من عبثهم. وقد لجأ المدعو محمد سعيد أبو لاوي، إلى تمزيق كتاب الإسلام والقضية الفلسطينية ل(عبد الله علوان) بعد دخوله المكتبة العامة بأربعة أيام. كما لجأ المدعو

¹² انظر: محسن ثابت، مرجع سابق، ص 54-56. [المحرر]

¹³ **عبد الله يوسف عزام (1941-1989)**: ولد في قرية سيلة الحارثية قضاء جنين. حصل على شهادة الدكتوراه في أصول الفقه من الأزهر في مصر، وعمل محاضراً في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية. أحد أبرز مؤسسي ”قواعد الشيوخ“ والتي شاركت في العمل الفدائي ضد الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية. غادر الأردن إلى السعودية ثم إلى باكستان، وأسهم في دعم الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال الروسي. أسس مكتب الخدمات لدعم الجهاد الأفغاني وتفرغ لهذا العمل، واهتم في دعم الجهاد والمقاومة في فلسطين. له العشرات من المؤلفات، منها ما هو متعلق بالتحريض على الجهاد في فلسطين ودعم حركة حماس. اغتيل في 1989/11/24 بتفجير سيارته في بيشاور الباكستانية. انظر: عبد الله عزام، حماس الجذور الأساسية والميثاق؛ وموسوعة الذخائر العظام في ما ورد عن الإمام الهمام القائد المجاهد الشهيد عبد الله عزام (بيشاور: مكتب الشهيد عزام الإعلامي، 1997)، ج 1، ص 824-874؛ ومحمود عزام، الدكتور الشهيد عبد الله يوسف عزام شيعي الذي عرفت، سلسلة قادة معاصرون 3 (غزة: إبداع للأبحاث والدراسات والتدريب، 2011)، ص 170-193.

حسن الخطيب من حزما قضاء رام الله، إلى تمزيق كتاب السرطان الأحمر للدكتور عبد الله عزام، بحجة أنه تهجم على الفصائل، كما أخفى أمين مقبول من نابلس —وقد تمّ إعادته— كتاب معالم في الطريق لسيد قطب عامين، ولم نستطع اكتشاف مخبئه، إلا بعد أن خرج للعمل في المكتبة، أحد العناصر المتعاطفة مع الجماعة الإسلامية سراً، اكتشفه فوجده يعلوه الغبار، ووجد كثيراً من الكتب الممزقة في إحدى زوايا المكتبة.

ومن أعجب القصص التي حدثت في معتقل بئر السبع، أن قام أحد مسؤولي فتح بتمزيق القرآن الكريم، واستخدم جلده لتجليد إحدى الكراسات، وقد رمى أوراق القرآن في المرحاض إلا أن الله سبحانه وتعالى، الحي القيوم الذي لا يغفل ولا ينام، اقتص منه اقتصاصاً فريداً من نوعه، فقد توفي والده أمام أنظاره أثناء الزيارة قبل أن يحدثه بكلمة واحدة، ولم يمض عليه بعد هذا الحادث وقت حتى وقع فريسة للمرض، وعانى معاناة لم يسبق لها مثيل، حتى غدت حياته سلسلة طويلة من العذاب المستمر، واستمر على هذه الحال ستة أشهر وتوفي بعدها.

وسألت الأخ المجاهد عمر البرغوثي (أبا عاصف) عن هذه الحادثة حيث كان موجوداً في بئر السبع وقتذاك فقال: إنَّ المعني هو محمد خليل أبو الليل من الأغوار الأردنية.

حدثني الأخ المجاهد سامي حسين عن موجّه تنظيم فتح في سجن جنيد، واسمه هاشم فقوعه: أنه من باب إحدى الغرف رأى الأخ فؤاد الهودي يقرأ القرآن وهو مضطجع على سريره، فدخل عليه الغرفة بعد أن طلب من السجان فتحها، وانتزع القرآن من يده ورمى به جانباً وهو يقول: في الخارج عندك الوقت الكافي لقراءة القرآن، أما هنا فالأولويات لكراسات التنظيم.

هذه أيام السبعينيات... أيام المد الشيوعي، وأيام الأممية لأعادهها الله على "أجاويده". وفي السبعينيات عند الفصائل جميعاً كان رمضان في عالم آخر، كان غائباً عن ساحاتهم، فالطعام جهاراً نهاراً، وعلى أعين الناس يأكلون في الساحة ويدخنون، وأنى لرمضان حرمة عندهم؟!.. وبلغ الاهتراء عند أبناء التنظيمات في منتصف السبعينيات حداً غير مقبول، وهو أن مدير السجن واسمه ديسترفيلد كان يأتي بزوجه وضباطه، ويجلس على الكراسي لمشاهدة لعبة كرة السلة، بين فريقين من أبناء فتح والشعبية والفصائل الأخرى، بمناسبة عيد استقلال دولة الاحتلال!! ما حدا بشاب، روي من حليب أمه، على

أن عمل عملاً أفسد على المدير نشوته، فضربه المدير فيما بعد على رأسه بالمكواة، ولا أدري ما مصيره. وقيل إنه مات رحمه الله، جرّاء تلك الضربة. المدير هذا هو من دخل علي لاحقاً في صلاة الجمعة، وبلغ الإجماع عنده أن سجاناً يهودياً تفاعلت عاطفته معنا فبكى على حالنا، وحال الأسرى في ساحة السجن، فأمسك به من أذنه وطرده من العمل. وهو من قال لي مرة على خلفية إضراب عن الطعام جمعنا مع بقية الفصائل، قال لي: أنت متدين وهؤلاء ماركيون: ”كومونست“—قالها بالعبرية— ما الذي جمعك بهم؟ فقلت له: نحن مظلومون، وأنت ظالم، هذا الذي جمعنا، فما أجب.

استقبلنا إخواننا بحفاوة بالغة، وحتى في السجن: ”من كثر سواد قوم فهو منهم“¹⁴، وإخواننا في جماعة عسقلان شعروا بالنشوة، وفرحوا لحضورنا، ونحن وإياهم أبناء مدرسة واحدة، وفهمنا للإسلام منسجم مع تباين في الرؤى والآراء. لكن منذ الأيام الأولى، اتفقنا وإياهم على أننا جماعة واحدة داخل السجن، أما في الخارج فالجماعة التي تكون أقرب للحق فنحن معها، وكثيراً من أبناء الجماعتين كان يرى مستقبله في جماعة الإخوان المسلمين، لكن بعض إخواننا القدامى في جماعة عسقلان، كانوا يرون أن جماعة جبر عمار هي الأقرب للحق، والذي سأحدث عنه وعن دوره في بناء الجماعة، وأنها بديل عن الجماعات، ولكنهم قلة وانتهى المطاف بجبر عمار وحيداً ليس معه أحد.

تفاعلنا مع إخواننا الذين بلغ عددهم في عسقلان 40 مجاهداً، وكنا نحن ما بين 10-15 مجاهداً، وقد ذكرت معظمهم من قبل، لكن من الوجوه البارزة التي استقبلتنا، أمير القوم الأخ صبحي الوحوش من حلحول، قائد دورية قادمة من الأردن، وذهبت ساقه بسبب لغم أصابه، وكان قائداً لجبل الخليل في مرحلة ما قبل اعتقاله، وكان شاباً مثقفاً جامعياً ذا حياء جمّ، والأخ المجاهد سعيد قاسم، من مخيم الرشيدية جنوب لبنان، وهما من المؤسسين للجماعة مع الإخوة جبر عمار وحافظ الدلقموني وجميل أبو عيشة، وجميعهم أسرى دوريات من خارج فلسطين، كانت تجربتهم قاسية ومريرة، ابتدأت بالتكفير، وانتهت بالنضوج، وكانوا يفهمون المفاصلة الشعورية التي تحدث عنها سيد قطب، باعتبارها القطيعة الفكرية مع العلمانية.

¹⁴ لنص الحديث وتخريجه انظر في: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب (بيروت: دار المعرفة، 1379هـ)، ج 13، ص 37-38. [المحرر]

ثم استوعبت الجماعة فيما بعد، الإخوة: جميل نوفل، وزهير الرنتيسي، وإبراهيم مطر، وشعيب الحايك، وحمزة كنفوش، ومحمد أبو عيادة، ورجب الكيلاني، والشهيد مصباح السوري¹⁵، وطلال خلف قريب لأبي إياد خلف، وعبد الحليم شهاب، وهؤلاء جميعاً من غزة، وكانوا ينتسبون إلى قوات التحرير الشعبية. وأما من فتح فالإخوة: فرحان اللوح، وعبد الرحمن الهجين، وأحمد صادق، والحاج ماجد قاسم من قلقيلية، والأخ المجاهد (أبو أحمد) عطا الله فايد، ويوسف الباز من البريج. ومن الجبهة الشعبية عماد أبو حية. كانوا رجالاً كالجبال، كأنهم "قرامي" الزيتون، ولاؤهم رائع، لا يقبلون الضيم. ومنهم من أكرمني الله بالعيش معه في غرفة واحدة، وهو الأخ المجاهد جميل نوفل (وأظن أن المجاهد القسامي أيمن نوفل، الذي سجنه نظام مبارك البائد، هو ابن أخيه)، وجميل هذا أصيب بمرض في عينيه، وذهب لعيادة السجن للعلاج، لكن دون جدوى، وانتهت به الحال أنه أصبح كالأعشى لا يرى، فقال: قرأت حديثاً للنبي ﷺ يقول: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، وورقه من حيث لا يحتسب"¹⁶ قال: فقلت هذا حديث عن النبي ﷺ، والذي لا ينطق عن الهوى، والأمر لا يحتاج إلا لليقين، فعزمت من كل ليلة قبل صلاة الصبح بساعة، وربما قبل ذلك بعد قيام الليل، أن أجعل للاستغفار نصيباً يزيد على نصف ساعة، والتزمت بذلك، وأتذكر ذنوبي وأستغفر حتى غلب على ظني أنني قضيت على ذنوبي بالاستغفار، وذات ليلة وبينما أنا نائم، أدخلت غرفة عمليات للعيون، وأجريت لي عملية كاملة، ولما استيقظت من النوم شعرت بأثار العملية، وعاد لي بصري تماماً.

حصل ذلك وأنا معه في الغرفة، وكانت الغرفة تتسع لستة عشر رجلاً، جنباً إلى جنب كعلب السردين، على فرش أبلتها الرطوبة، واحدها تسمى (الجومة)، وهي ما بين البلاستيك والجلد، سمكها أقل من نصف سنتيمتر، وكانت الغرف مضغوطة جداً، وكانت معاملة الإدارة قاسية، وكان شاويش الساحة يهودي اسمه جورنو، وهو قبيح

¹⁵ مصباح حسن السوري ([1952]-1987): ولد في مخيم المغازي في قطاع غزة لعائلة هجرت من بلدة الفالوجة. نشط في صفوف المقاومين إثر الاحتلال الصهيوني لقطاع غزة، واعتقل في السجون الصهيونية. قاد عملية الهروب من سجن غزة المركزي في 18/5/1987. انضم لحركة الجهاد الإسلامي وهو في السجن وتعدّه الحركة أحد رموزها. أشرف على قتل قائد المخابرات العسكرية الصهيونية في غزة رنطال. استشهد في اشتباك مسلح مع قوات الاحتلال الصهيوني في 6/10/1987.

¹⁶ لنص الحديث وتخريجه انظر: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (الرياض: دار المعارف، 1992)، الحديث رقم 705. [المحرر]

المنظر، يقف في الساحة ومن لا يعجبه منظره يصفعه بيده، هذا في الأيام الأولى، يوم أن كان لا يسمح لأكثر من اثنين بالمشي معاً.

منبر الجمعة:

في سجن عسقلان منعت إدارة السجن خطبة الجمعة في الساحة، كل غرفة لها خطيبها من غرف الجماعة، أما غرف الفصائل فلا رمضان ولا صيام ولا صلاة ولا جمعة إلا القليل، الذي يقوم بهذه الفرائض على انفراد واستحياء، ولا تخلو صلاة لأحدهم من الغمز والتعليق من الشياطين حتى يوصلوه في النهاية إلى ترك الصلاة. ومع الأيام أزججت الخطبة في الغرف والبعيدة عن الأسماع إدارة السجن، لتكون على علم فيما يُقال، فطرحنا علينا وعلى الفصائل الصلاة في الساحة. لكن الفصائل رفضت الفكرة بادئ الأمر؛ لأنها منبر للجماعة، وأن الجماعة ستقول كلمتها التي حيل بينها وبين الناس، وكان حلمها من قبل، أن تصل كلمتها إلى الناس، والساحة في وسط السجن، وكل من في السجن سيستمع إلى الخطبة رغم أنفه، خاصة مع عدم وجود التلفزيون أو الراديو. واقتصر الأمر في الصلاة داخل البهو أو "المردوان" مع فتح غرفنا للصلاة، إلا أن إبقاء الغرف مفتوحة، لم يعجب الإدارة، فخرجنا للصلاة في الساحة. وكان ذلك بوابة للدعوة إلى الله، ونافذة لكل من يحب أن يستمع، ومع أن ساحة الفصائل الفكرية مادية، قائمة على الإلحاد ومن لم يكن على الإلحاد فهو في السوء أسوأ من أولئك، فإن لكلمة الحق قوة وبيانا، وفي موقف تنتظره الساحة بأذان وحواس مشدودة، افتتحت خطبة الجمعة بالآية الكريمة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾¹⁷، وما إن وقفت لخطبة الجمعة، وتلوت الآية على مسامع الناس، وبعاطفة اقشعرت لها الأبدان، حتى لكأن ما أثقل القلوب قد انزاح عنها، فمست من الناس شغاف قلوبهم. كنت أيامها خطيباً أوتيت تأثيراً على السامعين، وما من يوم جمعة إلا والحاج ناجي أبو نجمة رحمه الله، يقول لي: أنت فارسها.

وأنى لي اليوم أن أبلغ مرتبتي في تلك الأيام؟ ولربما أن الفترة الزمنية مع الصراع الفكري، كان لها أثرها في التحدي، وأذكر أن شاويشاً من يهود روسيا، قال على مسمع من أحد الإخوة، وأنا أخطب الجمعة، "الشيخ أبو طير كالديزل، كلما حمي... علاصوته".

¹⁷ القرآن الكريم، سورة فصلت، آية 26.

ومرت سنتان ونصف السنة وأنا خطيب الجمعة في عسقلان، إلى أن رحلتني إدارة السجن والأخوين صبحي الوحوش والحاج ماجد قاسم إلى سجن بئر السبع؛ لأنني وقفت خطيباً وتناولت الحرب على الجنوب اللبناني في حزيران/يونيو سنة 1982. وقلت إن الذي يقاتل في الجنوب اللبناني ويتصدى لقوات الغزو، كالذي يدافع عن مكة والمدينة. فكان الترحيل. وقبل الترحيل انتقلنا من قسم (أ) إلى قسم (ج) (مقابل قسم (أ) على الساحة)، انتقلنا لأن عددنا زاد على ثلاثة غرف، فامتلاً قسم (ج) بغرفة الخمس من شبابنا. وأصبح عددنا 70 مجاهداً، وأصبحنا الكتلة العقائدية الأولى في السجن. وعلى الرغم من هذا الثقل، فإن معاملة الفصائل لنا بقيت على حالها، إلا بعض الانفتاح بسبب خطب الجمعة، وأكثر من يحمل لك الكراهية هم الماركسيون، الذين يحتضنهم تنظيم فتح أكثر من الجبهة الشعبية، وكان ماركسيو فتح يكفون الشعبية أية مواجهة.

الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمون:

وذات مرة وأنا في القسم الأول في سجن الرملة سنة 1976 أو 1977 زارني الأخ الدكتور (أبو مالك) ناجح بكيرات، وقد تخرج من المعهد الشرعي، وكان يعمل إماماً في قرية عبوين من قضاء رام الله، فسألته عن أوضاع الخارج، وعن العمل الدعوي، وفي إطار أية جماعة يعمل، فأجابني أن الظروف صعبة، وأن الناس في جفاء مع الدين لتسمم الأفكار. وقد استفحل بين الناس في تلك المناطق الحزب الشيوعي، حتى إنهم من المكر والدهاء يدخل بعضهم المسجد للصلاة من أجل الإساءة والتشكيك، وقد بدا لي أنه متحفظ من ذكر الجماعة التي ينتمي إليها، للشبهات التي تثار ضد العمل الإسلامي ولضراوة الحملة التي تُشن ضد جماعة الإخوان المسلمين من بقايا خصومة جمال عبد الناصر. فقلت له يا أخي، اصدع بالذي نؤمن به، واعلم أننا هنا في السجن، لا نجد بديلاً عن جماعة الإخوان، وقد عرفها آباؤنا من خلال حرب فلسطين.

وفي سجن عسقلان بقيت الجماعة الإسلامية متماسكة، ويغلب عليها فكر الإخوان المسلمين؛ لأنه لا يوجد في الساحة من هم أنضج منهم، وفرصتنا في الوصول إلى الصورة الناضجة، وإلى الحقيقة، من خلال قراءتنا لكتبهم، والاطلاع على تجربتهم، التي بذلوا من أجلها الدماء والأرواح في السجن. تعرفت على الأخ عبد الحليم شهاب، وتبين لي أن له بيعة مع جماعة الإخوان، وشباب آخرين مثل زهير الرنتيسي وجميل نوفل، وكنت أنظر لجماعة الإخوان قبل أن ألتحق بركبها، فمن يرى الحقيقة ويدير لها

ظهره فهو أعمى . ولقد جاءني الأخ عبد الحليم وطلب مني البيعة للإخوان، وما ترددت، أعطيته إياها ومشيت، وكان في الجماعة إخوة لهم وجهة نظر أخرى، كانوا يرون في ثورة الخميني نموذجاً، وهم في طريق الإعداد لتشكيل حركة الجهاد الإسلامي، وكان الأخ أحمد مهنا من القرارة من غزة، يُنظر لهذا الاتجاه، ومن حوله إخوة كرام منهم الشهيد مصباح الصوري، والأخ المجاهد زياد نخالة، نائب الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في الخارج، لكن بقليل من الحزم حافظنا على سلامة الجماعة .

وبقينا على الوفاء لهذه الجماعة، ولم يخرج منا أحد عن إطارها؛ لأنه كما قال رسول الله، ﷺ: "إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية"¹⁸، ولأن الفصائل تريد أن ترى فينا يوماً، ويوم السعد عندها أن تذهب ريح الجماعة، ولكن الله تعالى يقول على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾¹⁹.

إضراب من أجل اللحية:

كانت إدارة السجن بادئ الأمر تمنعنا من تربية لحانا، والإخوة في عسقلان قبل وصولنا إليهم، أضربوا عن الطعام سبعة عشر يوماً، من أجل تربية لحاهم. وإن كنا اليوم لا نرى ضرورة للإضراب عن الطعام، ولكنها أيام تحدت وكانت التربية على نصوص السنة فولاذية، فالأخ جبر عمار مثلاً، وهو مؤسس الجماعة في عسقلان، من قسوة تربيته (ولا ألومه فهو عسكري)، كان لا يقبل كأساً من الماء، أو أي حاجة تُقدم باليد اليسرى. وطبع الناس على ذلك، ونجح بين قوم كانوا في غربة عن الإسلام، وكانت إدارة السجن تستعمل الزرنينخ [مادة إزالة شعر] بالقوة، لكل من أطلق لحيته.

حرب في لقوة العيش:

هناك شيء كان على الثوار أن يترفعوا عنه، وأن لا يدخل في حساب الصراعات أو اختلاف الأفكار، هذا الشيء يخص طعام الأسرى، فإدارة السجن تأتي بالطعام لجميع الأسرى، ومن في مطبخ السجن من العمال من فتح والجبهتين، ومسؤول المطبخ من العمال هو المسؤول عن توزيع الطعام على جميع الغرف بنسبة عددهم، ومعظم غرف

¹⁸ لنص الحديث وتخريجه انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب للمنذري (الرياض: مكتبة المعارف، 1421هـ)، الحديث رقم 427. [المحرر]

¹⁹ القرآن الكريم، سورة يوسف، آية 64.

السجن متساوية في عدد الرجال، 16 لكل غرفة فيما عدا ستّ غرف من أصل 30 غرفة، كان عدد الأسرى فيها 10 لكل غرفة، فلماذا لم يعدل الثوار في توزيع الطعام؟

في غرفنا صحن الفول لشخصين، ولربما لثلاثة أشخاص، وهي الوجبة الأساسية صباحاً ولا شيء معها، بينما في غرف المناضلين من فتح والجبهتين صحن لكل فرد. وما كنا ندري عن ذلك حتى زارنا رفاق في الشعبية ليلة أو ليلتين بسبب تصليح غرفة لهم. ولما رأوا حال الفول وسواه من الطعام والخضار تعجبوا من ذلك، وقالوا: بهذه الكمية يأتيكم الطعام؟ قلنا: نعم وعلى مرّ السنين، فقالوا: هذه حال غير مقبولة، نحن يأتينا الطعام بكميات أكبر.

فانظروا ظلمهم حتى في توزيع الطعام، ولا شكّ في أنه سيكون وبالاً عليهم.

الأذان والحاج مهاوش:

كان الأذان ممنوعاً من إدارة السجن، وكانت الإدارة بسجانيها تضيق ذرعاً بالأذان، ولا تريد أن تسمح به أو تسمعه. لكنّ شباب الجماعة، كلما ذهب واحدٌ منهم إلى الزنازين حلّ محله آخر يرفع الأذان. واستمرت الحرب طويلة، إلى أن استسلمت الإدارة، واستمر رفع الأذان.

كان من الذين رفعوا الأذان، الحاج مهاوش الحشاش من رفح، وكثيراً ما ذهب إلى الزنازين من أجل ذلك، وفي الزنازين كان يؤذن مما يزيد في سخط الإدارة؛ لأن مكاتبتها قريبة منه. والحاج مهاوش يزيد على الخامسة والخمسين من عمره، وقصته كما حدثني: أنه دخل مع دورية عن طريق وادي عربة إلى النقب، وكانت مجموعته ثلاثة وهو رابعهم، وكانت القيادة لشاب اسمه حسين، والحاج مهاوش دليل ومقاتل، وهو من نجح في تهريب الأخ ناهض الرئيس (أبو منير) من غزة إلى الأردن عندما كان مطارداً.

اكتُشف أمر الحاج مهاوش ومجموعته في الطريق، واشتبكوا مع العدو الصهيوني، واستشهد منهم اثنان، ووقع في الأسر حسين والحاج مهاوش. يقول حسين: قلت للحاج مهاوش، إذا سألك في التحقيق عن قضيتنا، فقل لهم: إننا مهربون، ”أحنا شغل تهريب“، وأوماً الحاج برأسه علامة الموافقة. ولما وصلا إلى ساحة التحقيق في سجن غزة، سأل مدير السجن الحاج مهاوش، على ماذا أنتم معتقلون؟ فقال الحاج بثقة مطلقة كلمةً كلما أتذكرها تحضرني الابتسامة، ويغلبني الضحك لما حدثنيها. على ماذا أنتم

هنا؟ ويجيب الحاج مهاوش بما لا يتوقعه زميله حسين، نحنُ جيش تحرير، جيش تحرير، يرددها لمرتين وحسين يتميز غيظاً، من اعتراف الحاج، وبوخزة منه وصوت خافت: يا حاج، قلت لك قل لهم إننا مهربون، لكن الحاج يُسأل مرةً أخرى: والجواب هو، هو، ”إحنا جيش تحرير، جيش تحرير“، وينهال الضرب على حسين بدلاً من الحاج. وهكذا، جيش تحرير.

مؤسس الجبهة الإسلامية في سجن عسقلان:

وقبل الخروج من عسقلان لي وقفة مع الأخ الحبيب جبر علي عمار، مؤسس الجماعة الإسلامية في عسقلان، وجبر، حفظه الله، ضابط في قوات التحرير الشعبية، بقايا جيش التحرير الفلسطيني، الذي أسس نهاية سنة 1964، وأُتبع لقيادة منظمة التحرير ورئيسها أحمد الشقيري.

جبر تخرج من جامعة الإسكندرية قبل حرب 1967، والتحق بجيش التحرير برتبة ضابط، وهو من عائلة مهجرة، من قرية من قرى المجدل اسمها بيت دراس، وكنت قد تحدثت عنها من قبل... وتتميز بعناد رجالها، وجبر من هذا الطراز من العناد. استشهد أبوه قبل التهجير في حربه ضد المحتل، وتزوجت أمه وهو صغير، وقامت على تربيته جدته وعمته كذلك.

أخونا جبر هذا، لم يقتصر نشاطه على الساحة الأردنية، يوم أن كانت الثورة في الأردن بعد حرب 1967، بل تعدى ذلك إلى الساحة السورية، وقطاع غزة أخيراً. فقواعد الفدائيين في الأردن ومعسكراتهم كانت تشهد نشاطاً وتعبئةً من الأخ جبر، وهو صدامي من الدرجة الأولى، وكان يلوم وبلهجة قاسية الذين يتخذون من عمّان وفنادقها منازل، دون قواعد المقاتلين في الجبال والأغوار، وكان يقول: من يريد أن يحرر فلسطين، فليترك الفنادق إلى الخنادق. وكنت ذكرت في حديثي من قبل، القائد الفلسطيني أبا علي إياد، رحمه الله، فذات مرة قدمت مجموعة من العراق تريد للحاق بصفوف الثورة، وكان أفرادها سكارى، فاستقبلهم أبو علي إياد بقوله: فلسطين لا حاجة لها بالسكارى، تريدون تحرير فلسطين وأنتم سكارى، كيف؟ وأمرهم بخلع ملابسهم إلا ما يستر العورة، وجلدهم عراة، كان ذلك في غور الأردن. فالأخ جبر من حرارة صدره، ضاق به المسؤولون ذرعاً، فتخلصوا منه بنقله من الساحة الأردنية إلى قطاع غزة عن طريق

سبنا، وكان لهم ذلك. فدخل القطاع وتسلم قيادة المنطقة الشمالية، وكان من جنوده الأبطال الشهيد عبد القادر أبو الفحم، رحمه الله، والذي استشهد في الإضراب عن الطعام في سجن عسقلان سنة 1970.

كانت غزة في أيامهم في الليل للفدائيين، وفي النهار لجيش الاحتلال، وكانت عمليات عبد القادر أبو الفحم من أجراً للعمليات، وهي كثيرة، قيل إنها بلغت أكثر من 300 عملية عسكرية، رحمه الله.

وبقي جبر في قيادة المنطقة الشمالية، إلى أن ألقى القبض عليه، واعتقل وخضع للتحقيق في سجن غزة المركزي، وهو ما يسمى السرايا اليوم، وحوكم، ورُحِّل إلى زنازين عسقلان في تلك الأيام، لما تميز به من قوة شخصية وجرأة عجيبة. ففي المحكمة، وقبل أن يصدر قرار الحكم، وقف وتحدث عن واجبه نحو وطنه وتحرير فلسطين، وأن الصهاينة محتلون لأرضنا وليس لهم مستقبل إلا الرحيل.

في زنازين عسقلان وقع بين يديه المجلد الثالث أو الرابع من تفسير ظلال القرآن لسيد قطب، رحمه الله، وقراه جيداً وتفاعل معه، وخرج بما لم يكن في حسابه، فأقبل على القرآن وعلى كتب مثل الظلال تُنمي فيه شيئاً جديداً، وتنقله من حالة التيه والضياع إلى هدى الله، والعمل من أجل دين الله. لكن في البداية قامت فكرته على تكفير الناس؛ لأن فهمه للنصوص عند سيد قطب جنحت به، ولغة العرب عنده ما زال النحو فيها في بداياته. وما إن خرج من الزنازين إلى السجن حتى استقطب حوله رجالاً في جماعة إسلامية، لأول مرة في سجون الاحتلال. ولقوة شخصيته ولضعف التنظيمات في تلك الأيام في عسقلان، لم تواجه الجماعة في تأسيسها أي مشكلة، بل من الناس من كان يعجبه حالها لأسبوع، أو شهر، أو شهرين، ثم يدير لها ظهره ويخرج ويغادر؛ لأنه لا يقوى على شروط العيش فيها.

كان أكثر من في الجماعة من قوات التحرير الشعبية، ومن شباب الدوريات الذين دخلوا الحدود إلى فلسطين في عمليات عسكرية ضد الاحتلال ووقعوا في الأسر؛ منهم الأخ وأمير الجماعة فيما بعد أبو محمد حافظ الدلقموني، وسعيد قاسم، وصبحي الوحوش، ويوسف جاد الله، وشعيب الحايك، وقاسم دربل من سورية، وجميل أبو عيشة من الأردن، ومن قطاع غزة من ذكرتهم فيما سبق، وسلمان أبو حجاج من بدو سبنا، والأخ الفاضل عطا الله فايد أبو أحمد من فتح، وعيسى شاهين من بيت لحم. ولما قويت شوكة

الجماعة، وأصبحت قوة لها حضورها، خشى أبو علي عبد العزيز شاهين²⁰ من تزايد أفرادها وامتدادها، فقال للأخ جبر، الذي يتميز بقوة شخصيته، ويحظى باحترام جميع الفصائل: تعال أنت والجماعة إلى تنظيم فتح، واستلم قيادته. فرفض جبر هذا العرض الذي من ورائه لعبة خبيثة لأبي علي شاهين، وهي ذوبان الجماعة في تنظيمه، وغياب هذه الظاهرة، التي استقطبت بمصداقيتها من فيها من أفراد، والتي كانت حاضرة بقوة في كل الخطوات الاستراتيجية داخل السجن كالإضراب.

كانت حال سجن عسقلان تعيسة، حيث كان جميع السجناء يفترشون في نومهم جلدة؛ هي أقرب إلى البلاستيك منها إلى الجلد، وغطاؤهم من البطانيات التي تأتي بالأمراض بدلاً من الدفء، والتي تصيب الإنسان بالربو. هذه الحال طالعت وجلبت إلى الأسرى الأمراض، وخاصة مرض البواسير، الذي سببه البرد والرطوبة، وكذلك أمراض أخرى. فتشاور الجميع على الإضراب عن الطعام، واتفقوا على ذلك بقيادة أربعة، هم: جبر عمار عن الجماعة الإسلامية، وأبو علي شاهين عن فتح، وعبد الله العجومي عن الجبهة الشعبية، ومحمد حمدان عن الجبهة الديمقراطية. ودخل سجن عسقلان الإضراب أول مرة بهذا الزخم، لمدة خمسة وأربعين يوماً في المرة الأولى، وعشرين يوماً في المرة الثانية، وكان ذلك سنة 1976. ومطالبهم كانت فرشات للنوم، وتحسين أوضاع المطبخ وظروف الحياة المعيشية، وبحبوبة في الوقت أكثر عند الخروج إلى الساحة²¹.

إنها معركة الأمعاء الخاوية، يعيشها الرجال في سجن عسقلان، وتتضامن معهم السجون يوماً أو يومين، وأطنان من الشحوم ذابت من أجل أن تتحسن ظروف حياتهم، لكن دون جدوى مع عدوٍ حاقد يتلذذ على عذابات السجناء. ويفرض الإعلام دوره، ويسمع العالم عن إضراب الأسرى في عسقلان، ويتوسط رئيس بلدية غزة حينذاك، الحاج رشاد الشوا، والشيخ هاشم الخزندار، لدى الأسرى ويحملون مطالبهم، ولا

²⁰ سيرد في هذا النص العديد من الروايات عن دور الأسير [عبد العزيز] أبو علي شاهين، وموقفه السلبي من تأسيس الجماعة الإسلامية ودوره القيادي في بعض إضرابات الحركة الأسيرة، حول أبو علي ومسيرته النضالية انظر: محمد القيسي، الهواء المقنع: أبو علي شاهين خمسة عشر عاماً في الاعتقال الصهيوني، تاريخ شفوي (تونس: كتاب لوتس، 1986). [المحرر].

²¹ انطلق الإضراب المفتوح عن الطعام في سجن عسقلان يوم 1976/12/11، وبعد تراجع إدارة السجن عن الوعود التي قطعها للأسرى قرر الأسرى استئناف إضرابهم من جديد يوم 1977/2/24. [المحرر]

يريدون كثيراً، إنما يريدون تحسين ظروف حياتهم. وأخيراً وبعد إضرابين كبيرين، استجابت مصلحة السجون، وقامت بتزويدهم بالفرشات.

وبعد الإضراب رحل جبر، وأبو علي شاهين، ومحمد حمدان، وعبد الله العجومي إلى عزل سجن شطة، لأربع سنوات أو يزيد، إلى أن افتتحت مصلحة السجون سجن نفحة سنة 1980. ورحلوا إلى هناك، وبدأ إضراب نفحة منذ الأيام الأولى لافتتاحه²². وعادت مصلحة السجون بجبر وأبي علي شاهين إلى العزل مرة أخرى، وبعد حين نقل الاثنان إلى سجن غزة، وبقي جبر هناك إلى أن كانت عملية تبادل سنة 1983، فخرج مع الصفقة... وهو اليوم يعيش في السودان.

وفي إضراب نفحة هذا سقط شهداء جراء الإهمال الطبي، حيث كان يُرغم السجين على شرب الحليب عن طريق أنابيب توضع في الحلق تُسمى "الزوندا"، وتضل طريقها إلى الرئتين، مما يسبب حالة خنق تؤدي إلى وفاة السجين. وكان ممن خاض هذه المعركة ومضى شهيداً إسحق مراغة من سلوان، وهو شقيق لأبي موسى، الذي قاد فتح الانتفاضة بعد الانشقاق الذي حصل بعد الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان، وعلي الجعفري من مخيم الدهيشة، ورأسم حلاوة من غزة. وحياء الله الشهداء، وحياء الله جبر وجزاه الله خيراً، ومدّ في عمره بالعمل الصالح.

من رجال الجماعة في عسقلان:

في عسقلان تعرفت على رجال، كانوا في جاهليتهم محبطين من ثقل الأيام عليهم في السجن، ومن الفراغ القاتل الذي تعاني منه الروح، بل كان عنوان حياتهم الضياع، وعلى صعيد السلوك فلا انضباط. وممن تعرفت عليه الأخ حمزة كنفوش، الذي كان بينه وبين الدين والتدين جبال ووديان، ولطالما سخر من الدين وأتباعه، وغلظة القلب سمة من سماته، قبل أن يدخل الجماعة، وفي رقبته من الأرواح عشرين قتيلاً من الجواسيس، وصوم رمضان في غير وارده، وعلى أعين الناس في رائحة النهار في رمضان يتناول طعامه. ولما أذن الله له بالهداية، ولحق بركب الجماعة، استقام أمره، ومضى على بيعته

²² بدأ إضراب سجن نفحة في 1980/7/14 وكان السجن افتتح في أول أيار/ مايو 1980. للمزيد عن إضراب سجن نفحة المركزي انظر الوثيقة المهمة: جبريل الرجوب، نفحة يتحدث بعد ثلاثة وثلاثين عاماً: معركة الأمعاء سجن نفحة 1980 (رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2014).

إلى يومنا هذا. ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك. ولما حضر الشيخ أحمد ياسين رحمه الله، إلى عسقلان سنة 1984، كان حمزة ومعه الأخ محمد درويش، رحمه الله، من القائمين على خدمته والاهتمام به، حيث إن الشيخ كان قعيداً مشلولاً، كلاهما يقومان على طهوره وغسله وقضاء حاجته، إلى أن منَّ الله علينا بالفرج، وخرجنا جميعاً من السجن في تبادل 1985، في صفقة التبادل التي قادها أحمد جبريل، والتي ما عاشت فلسطين فرحة مثلها. وأخونا حمزة له مع الشيخ صولات وجولات. قال له يوماً: نريدك أن تغني لنا، والشيخ رحمه الله، صاحب نكتة، أي أغنية، وإذا بالشيخ يغني لهم "الأرض بتتكلم عربي... الأرض" لسيد دوريش، وهات ضحك وانبساط. وحمزة هذا لما خرجنا من السجن عمل حارساً في الجامعة الإسلامية، إلى أن أبعده إلى مرج الزهور، وبعد عودته رجع إلى وظيفته، ولمرات زرته في بيته في مخيم الشاطئ. ومن فكاكات الشيخ أحمد ياسين أنه كان إذا خلا الجو بأحد من مريديه، نادى عليه بصوته المبحوح تعال، تعال ننزل جولة مصارعة.

وكان معنا، وممن تعرفت عليهم، أبو العز الكتري محمد عبد الوهاب حمد، وهو من عائلة مناضلة ومجاهدة، وبيته كله إما لفتح أو الجهاد أو حماس، له ثلاثة إخوة في فتح، وواحد في الجهاد، وأما هو ففي حماس. وكثيراً ما مارسنا الرياضة معاً في السجن، وتشرفت بزيارته في بيته، وزارني في بيتي، وتعرفت على إخوته جميعاً، وهو اليوم وكيل وزارة الأسرى في غزة.

وفي عسقلان، وبقية السجون، كانت كتب منير شفيق، الذي صار من المفكرين الإسلاميين، هي المعتمدة عند حركة فتح. وكان حملة الفكر الماركسي في فتح يعدون الأخ منير هو المنظر للحركة، وجعلوا من قراءة كتبه الماركسية غطاءً لنشر الفكر في التنظيم، فكان الأخ منير يسرح ويمرح من خلال كتبه. ولما جاءنا بطلته الجديدة، وبنقلته الرائعة، وخاصة كتابه الإسلام والحضارة، والذي قرأته بشغف، ووجدته في كتابه هذا أكثر من أنصف الدولة العثمانية بمنطق علمي، بعد أن ظلمها القوميون العرب، ولما قلنا لأحباب منير شفيق، إليكم ما أتى به الأخ منير، وأن الرجل قد أصاب كبد الحقيقة، لووا رؤوسهم، وتململوا وأربكوا.

ولما تشكلت سرايا الجهاد في الثمانينيات من القرن الماضي، بفريق من الأحرار، وكان وراءهم، كما سمعت، الأخ منير شفيق، وهم من الذين لهم حضور الأبطال في

ساحات القتال، في الجنوب اللبناني، وحيثما كانوا قبل حرب حزيران/ يونيو 1982، وما بعدها، وعلى الخصوص كتائب القسطل والجرمق وغيرهما. كان من طلائع هذه الكتائب، وممن وقف على قيادة السرايا، الإخوة الشهداء: محمد حسن ابحيص، ومروان الكيالي، وحمدي سلطان التميمي. وكان وراءهم كما ذكرت في الإعداد والتنظيم والتنظير الأستاذ منير. واستطاع هؤلاء القادة استقطاب رجال المعارك، والمشهود لهم من قاعدة فتح التنظيمية. وعلى خروجهم هذا حوصر هؤلاء بالمال، حتى لا يخرجوا من تحت عباءة التنظيم، لكنهم صبروا على هذا الحصار، ودفعوا ضريبةته... فرحلوا شهداء. ولقد حاول أبو جهاد الوزير جاهداً أن يحتويهم، لكنه لم يفلح أمام رجال همتهم أكبر من الابتزاز.

لقد حظي هؤلاء القادة بثقة إخوانهم من المخلصين، وكان لهم حراكمهم على صعيد العمل المقاوم، وقُدِّرَ لثلاثتهم أن تجمعهم قبرص في مهمة، فانفجرت بهم سيارتهم في قبرص، وقيل إن الموساد Mossad هو من دبر ذلك.

وممن تعرفت عليهم داخل السجن وخارجه، من مدرسة الأستاذ منير والقادة الثلاثة، الأخ حازم عسيلة (أبو جابر) ومجموعته، والأخ أحمد شعبان، وهو من القدس كذلك، والأخت عطاف عليان²³، التي ضربت أروع الأمثلة في الصبر على المحنة والثبات داخل السجون. ويكفيها شرفاً وفخراً أنها أضربت عن الطعام أربعين يوماً من أجل رفع الضيم عن أخواتها. وتزوجت فيما بعد من الأخ المجاهد وليد اليهودي (أبو أحمد)²⁴.

²³ **عطاف داوود عليان (1962-)**: ولدت في بيت لحم، انضمت لمجموعات سرايا الجهاد، وتدرت سنة 1980 في معسكرات حركة فتح في لبنان. شاركت في التخطيط لعملية استشهادية بسيارة مفخخة تستهدف مبنى رئاسة الحكومة الإسرائيلية سنة 1987، بإشراف من الشهيد حمدي سلطان التميمي أحد مؤسسي السرايا. اعتقلت في 1987/8/2 قبل وقت وجيز من تنفيذ العملية، حكمت بالسجن لمدة عشرة أعوام، أضيف إليها لاحقاً خمسة أعوام لمهاجمتها سجانة صهيونية. أطلق سراحها سنة 1997، ثم أعيد اعتقالها أكثر من مرة لنشاطها في حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين. ناشطة في المجال الاجتماعي والسياسي، متزوجة من الأسير المحرر وليد اليهودي ولها طفلة.

²⁴ **وليد إبراهيم اليهودي (1960-)**: ولد في مخيم الجلزون قضاء رام الله لعائلة هجرت من قرية العباسية سنة 1948. تخرج من معهد المعلمين في مدينة رام الله، ليعمل بعدها مدة أربعة أعوام كمعلم للرياضيات. اعتقل عدة مرات في سجون الاحتلال الصهيوني، أبرزها اعتقاله سنة 1990، وحكم لمدة 12 عاماً ونصف. قضى أغلب فترة سجنه في الكتابة الأدبية، حيث خرج من السجن بثلاث روايات وسبع مجموعات قصصية. مدير مركز بيت المقدس للأدب. أبرز نصوصه **مدفن الأحياء (1998)**، و**ستائر العتمة (1999)**.

وما زلنا في سجن عسقلان، الذي فتح أبوابه لكثير من أبناء فلسطين، ومن العرب، ومنهم الأخ حسين أبو كويك، اللاجئ من اللد في مخيم الأمعري. حسين هذا لحق بركب الجماعة منذ أن وصل إلى عسقلان، وأثار ذلك حفيظة فتح على الخصوص، والتنظيمات التي عملت وتعمل جاهدة على تحجيم الجماعة الإسلامية. ومن بعده جاءنا فتى دون الثامنة عشرة من عمره هو سلمان أبو عيد، من قرية بدو قضاء القدس، اعتقل على خلفية انضمامه للجبهة الديمقراطية، واعترف في المسكوبية بأنه انضم لصفوف هذا التنظيم، ولكنه قطع اتصاله بهم، وهجر التنظيم قبل دخول السجن. ولما انتهى به التحقيق إلى غرف المسكوبية... التقى أسرى من السجون، منهم عمر القاسم وآخرون. ومع ساعات النهار، كان الحديث يتفاعل لدى الثوريين في التنظير والتحريض على الخارجين عن الخط الوطني حسب زعمهم، وهم أفراد الجماعة الإسلامية. وكلما حضر عندهم مناضل جديد خارج من زنازين التحقيق، افتعلوا له الحديث عن قصد وتخطيط، في تعبئة خاطئة وحملة ضارية، ضد الجماعة والمنتسبين إليها. ويذكر في السياق التحريض ضد الشيخ أبو طير، ليتوجس سلمان ومن يسمع مخافة أن يلحقوا بركب الجماعة، وأوحي إليهم من خلال الحملة أن الجماعة بأفرادها جواسيس.

يقول سلمان: ما سمعت بالشيخ أبي طير إلا منهم، وقلت ما شأنه أن يُذكر بالسوء؟ ولما تقرر ترحيلنا إلى عسقلان، بعد هذه الموعظة البائسة، وحطت بنا الرحال في الزنازين قبل الدخول إلى السجن، أنا والأخ نادر علاء الدين من بيت لحم، وكنتيه أبو طلحة، تشاورنا في الأمر... وفيما يقال عن الجماعة، وهل صحيح ما يشاع حولها من شبهاة؟ فما العمل إذن؟ الديمقراطية عرفناها في الخارج، ونحن قوم مفطورون على التدين. فعزمتنا الأمر بعد تشاور بيننا على أن نلحق بركب الجماعة، مع خط رجعة إذا تبين لنا ما يشاع عنها، وهو الخروج منها، والخروج أسهل من الورطة مع الفصائل. فناموا ليلتهم في الزنازين، وعند الضحى قدموا إلى غرفتنا، فاستقبلناهم ورحبنا بهم، وأخذناهم بالأحضان. ولا شك في أن كل من يلحق بنا، هو رصيد لنا، ودم جديد لهذه الجماعة.

وما إن علمت الديمقراطية بدخول سلمان عندنا، وإذا بمسؤول منهم يقال له فايز الغوراني يقف قبالتنا وينادي بصوت عالٍ: يا رفيق سلمان — وسلمان في حينها لا يعرف الفرق بين أخ ورفيق — يا رفيق سلمان — وكأن كلمة الرفيق عند سلمان ولدت مع لينين أو ماركس — علا صوت فايز: يا رفيق سلمان، ومرة أخرى: يا رفيق سلمان،

أنت ابن الديمقراطية، ودخلت السجن على اسمها، وهنا كل إنسان يدخل عند تنظيمه، وهؤلاء الناس الذين أنت عندهم ودخلت عليهم غير وطنيين. قالها فايز بصوت عالٍ يستفز الحجارة. وكنت وسلمان واقفين عند شباك الغرفة؛ لأنه يوجد بهو بين الساحة والغرف، يقال له "مردوان". قلت: يا فايز، اغرب عن هذا المكان، وإلا كان لنا معك شأن آخر. فقال لي الأخ حسين أبو كويك، وكان إلى جانب فايز في الساحة: أأمرني بضربه؟ فقلت له: لا، وهذه مشكلة سهل حلها. وقلنا لسلمان: هذه جعجة فلا تقلق. وبقيت هذه المشكلة عالقة لأكثر من أسبوع. وقلت لأخوين كريمين، كل واحد منهما "قرمية" زيتون، الواحد منهما "مجدول جدلاً" ما شاء الله، رجب الكيلاني من بيت لاهيا من غزة، وعبد الرحمن الهجين من الزيتون من غزة، أنت عن يمين سلمان وأنت عن شماله — طبعاً هذا الاختيار له مغزاه عند الفصائل؛ لأن شريعة الغاب هي التي تحكم الساحة الاعتقالية — وإن حاول أحد من الديمقراطية الحديث مع سلمان، فقولا له: اذهب إلى الشيخ أبي طير وتحدث إليه. ثم عقدت جلسة اقترحتها التنظيمات فتح والشعبية والجماعة، جلس فيها الأخ زهران أبو قبيلة عن فتح، والرفيق محمود جدة عن الشعبية، وسلمان وأنا عن الجماعة، وتحدث إليهم، وخرجنا من الجلسة بأن تتراجع الديمقراطية عن استفزازها وأن تعرف حجمها، ولا سلطان لها على سلمان، وقد الله فيما بعد أن تجمع بيننا وبين سلمان المصاهرة؛ فقد تزوج من أختي.

وفي ساحة عسقلان مات أبو عيسى الشطريط من لحول، مات على إثر نوبة قلبية لم توصله إلى المستشفى، رحمه الله. ولما وصل جثمانه إلى لحول، إلى مسقط رأسه، رفضت عائلة ملحم دفنه في مقبرة البلدة؛ لأنه قتل مختارهم أيام الثورة الأولى، يوم أن كانت في الأردن، وكان لها هيبتها. وباسم الثورة قامت مجموعة فدائية بقيادة أبو عيسى الشطريط بقتل المختار محمد ملحم بتهمة أنه عميل. فثارت عائلة المختار حمية له، ووقعت فتنة بين الناس، وتراجعت الثورة عن تبني العملية، وبرأت المختار من تهمة، وأن القتل ليس من مسؤوليتها. وبالطبع ليس هذا بجديد على الثورة الفلسطينية. ودفن أبو عيسى رحمه الله، في جوار مسجد سيدنا إبراهيم الخليل، عليه السلام.

إيه، يا عسقلان، مات أخونا يوسف كريم من غزة في زنزانته، من المرض، ولم يعالج، بل إن أحد الإخوة أحضر له من نافذة الزنزانة علبة صغيرة من التمر، ومات وما استطاع أن يصل إليها.

من ”التكفير“ إلى ”الجهاعة“ في بئر السبع:

على أثر خطب الجمعة التي كانت تعالج قضايا الساعة، وعلى الخصوص الحرب التي تدور رحاها على أرض الجنوب اللبناني، وما جرى للشعب الفلسطيني في مخيمات الشتات، خاصة صبرا وشاتيلا، والمجازر التي حلت بالأهالي هناك. والدور القذر الذي لعبته الكتائب اللبنانية بدعم من قوات الاحتلال، يوم أن اقتحمت المخيمين، وأزهقت الأرواح ومثلت بالجنث، ومقابر جماعية، يندى لها جبين البشرية.

كنا نحرص على أن نحيي في الفدائي ما مات، ونعيد له ما فات، بعد هذه السنين التي تلوثت بالأفكار المادية، والترهيب الذي مارسته التنظيمات، ضد أفرادها حتى يبقى الدين منعزلاً، وحتى يبقى ما بينهم وما بين الدين باهتاً. ومع الأيام ركام يجثم بثقله على الفطرة، فتتنكب البوصلة طريقها. وترى كثيراً من الناس يعيشون الأمية، والأمية هنا ليست أمية القراءة والكتابة فقط، ولكن الحجر على الكتاب الإسلامي؛ كي لا يصل إلى أفراد التنظيمات هو الأمية. ففي مكتبة السجن، إذا طلب قارئ كتاباً إسلامياً، ينتظر أكثر من أسبوع، حتى يمل بعينها ويتراجع عن طلبه، وهي سياسة لا محيد عنها عند التنظيمات في حربها على الكتاب الإسلامي، فسياسة التسويف هي الفاعلة والباقية، إلى حين خروجنا من السجن سنة 1985.

على كل حال، بعد جولتين في الزنازين أو ثلاث، أقدمت الإدارة على نقلي وأخوين كريمين من الجماعة إلى سجن بئر السبع؛ لأننا أزعجنا إدارة السجن بخطب الجمعة، وكذلك كنا مزعجين لأبناء الفصائل من الماركسيين، الذين رأوا في خطبة الجمعة منبراً للفكر الإسلامي، وميداناً للتعبئة.

في صباح يوم الرحيل للمنا أغراضنا، وغادرتنا عسقلان في ناقلة يقال لها بوسطة، تابعة لمصلحة السجون، وسارت الناقلة تطوي بنا الأرض إلى أن وصلنا إلى سجن بئر السبع. وهناك استقبلتنا إدارة السجن بمديرها، ومن حوله وعن اليمين وعن الشمال شرطة السجن في موقف إرهابي، على إثر إشارة وصلت من مدير عسقلان، واسمه أشرف كوهن، إلى مدير سجن السبع واسمه أشرف غرافو، أن هؤلاء يشكلون خطراً وإزعاجاً، والنقل في عُرف مصلحة السجون للتأديب. ولما انتهينا من هذا الاستقبال، ودخلنا إلى السجن بعد التفتيش، استقبلتنا إدارة أخرى هي ”حكومة فتح“ في السجن، فمنعونا من العيش معاً في حجرة من حجر السجن، في عملية تفريق بهدف ألا نجتمع،

وألا نعيش بعيداً عن أعين التنظيم القائد، وعن رصده. وخرج علينا ذياب اللوح من غزة، وهو الموجه العام للتنظيم، ومسلم الدودة من لحول من مجموعة الأخ صبحي الوحوش، خرج علينا ذياب بلهجة متعالية في هذا السجن، تحاول أن تفرض علينا أنه "لا يوجد ولا يسمح بجماعة إسلامية هنا، والسلطة الكاملة هنا للتنظيم". فكتبت إليه برسالة روحها التحدي، وقلت له: شئت أم لا نحن جماعة، ولا نعطي ولاءنا لغير الله، ولن نقبل أن تحكمنا شروطك.

بادئ الأمر دخلت غرفة لفتح فيها شبان محترمون، رحبوا بي وتعاملت معهم بالأدب الذي علمنا إياه الإسلام. ونزل الأخ صبحي عند شاب من غزة اسمه محمد كشكو، في حجرة لاثنين يقال لها "إكس"²⁵. وأما الحاج ماجد، فكان لإخوة من "التكفير والهجرة" غرفة خاصة بهم وينقصها فرد واحد، فكانت من نصيب الحاج ماجد، واستقبله إخواننا من التكفير والهجرة، واعترضت فتح على دخول الحج ماجد، عند إخواننا في التكفير والهجرة؛ لأن لها وصاية علينا، فلا يجوز أن يدخل الحاج ماجد إلا بإذنهم. وكان تعليقي على ذلك أنهم لا يثقون بأنفسهم، كما كانوا يقولون، ولا يزالون يرددون، أن المنظمة هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، ولا أدري من خولهم بذلك؟ فالشعب لم ينتخبهم حتى ولو فرضوا أنفسهم عليه.

لم يصبروا على بقائي في الغرفة، فطلبوا مني الانتقال عند الأخ صبحي بدلاً عن محمد كشكو ابن تنظيم فتح، فكان ذلك. وعشت وصبحت في الإكس، إلى أن تمردنا وخرجنا من بين صفوف المناضلين الذين لا يقبلون غيرهم.

في كل يوم نخرج للساحة، ويقال لها "الفورة"²⁶، ويسلم علينا الناس في القسم الذي نحن فيه، من يعرفنا ومن لا يعرفنا. لكن مع الأيام تتبدى لك الحواجز، فالناس على خوف مما يثار حولنا، وحول أي جماعة إسلامية من شبهاً ويتجنبوننا، وقليل من يجروء أن يمشي معنا... فلا تفاعل مطلقاً، وإذا ما تفاعل أحدٌ معنا دخل الأمن أو الرصد بيننا، ليستمع إلى الحديث حتى ولو لم يكن في الدين. ولأكثر من مرة دخل علينا

²⁵الإكس: الزنزانة الصغيرة التي يوضع فيها الأسير، إما للعقاب أو التحقيق، وهي صغيرة الحجم وتخلو من مرحاض، ويوضع فيها أحياناً تنكة لقضاء الحاجة، وبعض "إكسات" التحقيق فيها مرابط حديدية لتقييد أيدي وأرجل الأسير. انظر: فهد أبو الحاج، مرجع سابق، ص 72. [المحرر].

²⁶الفورة: المدة الزمنية التي يسمح بها للأسير بالخروج إلى ساحة السجن للترويح عن نفسه، وعادة ما تكون في ساحة صغيرة، وهي مدة قصيرة. انظر: فهد أبو الحاج، مرجع سابق، ص 59. [المحرر]

الأخ نبيل دعنا مدفوعاً من خلال مهمته لينقل ما يدور من حديث مع أي عنصر من فتح إلى هيئة التنظيم. والذي يطور علاقاته معنا يُغمز به من هنا أو هناك، ويلحن عليه من متبرع آخر، وإذا ازدادت الأمور على صعيد الاجتماعيات، ازدادت الضغوط حتى تصل أحياناً إلى الضرب.

نبيل دعنا متعوب عليه عند التنظيم، شُغله الرصد، وأولاً بأول يتم النقل إلى هيئة الأمن في التنظيم. نخرج للساحة كالغرباء، وتفاعلنا مقصور على جماعة التكفير والهجرة وليس الكل. والحاج ماجد تعب منهم وتعبوا منه، دعوه أولاً للدخول في جماعتهم... لكنه رفض، وليس عن جهل بفكرتهم، بل هو على علم واطلاع بهذا الفكر، فقالوا له لا تصل معنا، بدعوى أنهم أقاموا عليه الحجة، ولا يجوز أن يصلي معهم، قال لهم: أصلي إلى جانبكم، قالوا: لا، قال لهم: ولو بشبر، قالوا: لا ولا بأكثر من شبر. فانظر إلى هذا الفكر العقيم الذي عاشه هؤلاء الشبان، إلى أن من الله عليهم بخلعه.

تفاعلوا معنا وتبادلنا الأفكار، فلا هم أفلحوا في إقناعنا بفكرتهم، ولا نحن كذلك، لكن بقيت العلاقة بيننا قائمة، وعلى وجه الخصوص، مع أميرهم الشيخ فخري أسعد؛ وهو بحق، عالم ومتبحر في علم الحديث ومصطلحه، وقارئٌ للتفسير، وعلى الخصوص، تفسير الظلال لسيد قطب، وكأنه يحفظه عن ظهر قلب، متأثراً بالنصوص المحمولة على غير تفسيرها، وصاحب حجة، لكن عُمي عليه وعلى أصحابه. فناقشناه هو على وجه الخصوص؛ لأنه هو من يعنينا، وإذا توصلنا معه إلى حل، فالآخرون تلامذة عنده ومن السهولة علاجهم. ويشاء الله بعد حين، وبعد مراجعته لكتاب الشفاء للقاضي عياض، وإذا بفخري أسعد، وكأن على صدره صخرة فانزاحت، كان في ضيق فانشرح صدره لسطور من كتاب الشفاء، وهو شفاء. فجاءنا الرجل ووقف على باب حجرتنا، وعلى استحياء قال: إنه قضى ما مضى من العمر على هذا الفكر وكأنه مخنوق، وأن الله سبحانه وتعالى أراد له الخير، ففرحنا وطربنا لحديثه، وشجعناه على التريث، وكثيراً ما بيّنا له أن مواطن التلبس تحتاج إلى فقه في اللغة العربية. وحمدنا الله على هذه النتيجة، وأن الله يريد لرحلتنا هذه أن تنتهي حالة التكفير على أيدينا، والتي طال عمرها وصاحبت هؤلاء الشباب لأكثر من 7 سنوات عجاف، تعرضوا من خلالها للموت، وأتت عليهم ظروف توضحاً ووصلوا صلاة الشهادة، لما لحق بهم من ظلم ذوي القربى، ولا شك في أن فكرهم من التطرف والصعوبة بمكان، فكانوا يعدون كل المساجد في الأرض مساجد ضرار، ويأمرون أهلهم بعدم الصلاة فيها.

نجحنا في إقناع فخري بوجهة نظرنا، بفكرنا ونهجنا، بفكر الإخوان المسلمين، وتقبل ذلك بارتياح، وقلنا له: ابدأ بالشبان القريبين منك؛ لأنهم متفاوتون، فأتانا باثنين منهم، هما ممدوح أبو دية، ومصطفى سنيورة من طولكرم، ولم نجد صعوبة في إقناعهما. ثم جاء دور الثلاثة الآخرين، فركبوا رؤوسهم وطاش عقلمهم، وقال لي أحدهم وهو ناصر الأفندي، الذي تخلى عن كل شيء فيما بعد، وهو الآن ضابط في الأمن الوقائي الفلسطيني، قال عن فخري: هو من زرعنا فينا كالإبر، كإبر المورفين، والآن يقول لنا: كنا هذه السنين على خطأ.

جادلوه وعلا صوتهم في غرفتهم وكادوا يقتتلون، ومن فصاحته أنه قال لهم وهو جالس على سريره: أخلع ما كنت عليه كما أخلع ثوبي هذا. وخلع ثوبه أمامهم، فهاجوا، وتطاولوا عليه، وقال لهم: أنتم أزارقة، طوبى لمن قتلكم، وطوبى لمن قتلتموه. وانتهت ظاهرة التكفير فيما بعد، وخرجنا للصلاة في الساحة، وعجب الناس من فخري وهو يصلي معنا، وما توقعوا ذلك أبداً، أو أن يصلي بنا جميعاً واحد من فتح في جماعة؛ لأن فتح كانت لا تسمح لنا بإمامة الناس، وأكثر من هذا أنهم منعونا من خطبة الجمعة، فإدارة السجن في عسقلان نقلتنا لأسباب عدة، وأهمها خطبة الجمعة. ولما وصلنا سجن بئر السبع، وكان يوم الجمعة وحانت الصلاة، جاءت إدارة السجن بمديرها ليروا من خطيب الجمعة؟ وفتح لم تحترم هذا الجانب فينا، والخطيب فيهم لغته العربية تشتكي إلى الله، وكنت أعلق: تملل سيبيويه في قبره، بل قرأ الخطيب ذات مرة في صلاة الجمعة من سورة عمّ يتساءلون، ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ (بكسر الصاد) قرأها المعصرات (بفتح الصاد). وفي جمعة أخرى حضرت الإدارة بمديرها ليروا من يخطب الجمعة، يريد أن يستمع إلينا لعله يهتدي! ولكن الثوار كفوه ذلك، ومكثنا بين ظهرانيم قرابة سنة، ولم يسمحوا لنا لا بالإمامة، وهم عوام، ولا بالخطبة خوفاً من التنظير. ولما فتح الله على الأخ فخري وانضوى تحت لوائنا، قال رجل من فتح واسمه محمد فياض من نابلس: من استطاع أن ينقل فخري من حالته الأولى يستطيع أن يقلب السجن بسهولة.

وتوضيحاً لحال جماعة التكفير، فقد جاء في كتاب المجاهد محسن ثابت، عن نشأة الجماعة الإسلامية في سجون الاحتلال، ما يلي:

وأعلنوا عن تشكيل نواة الجماعة 1970 إلا أنه لم يكن لهم أي اتصال مع الخارج، ما ساهم في عدم فهم قواعد الدعوة إلى الله، لغياب التوجيه الواعي، فارتكبوا بعض الأخطاء الفادحة كان أهمها:

تكفير كل المنتمين إلى فصائل م.ت.ف، حتى إنهم كانوا يفرضون على كل مَنْ ينتمي إليهم أن ينطق بالشهادتين، وأن يستحم، وقد بلغت بهم الحال أنهم كانوا يرمون الصابون في الزبل، بعد أن يستحم بها الأخ الجديد، ظناً منهم أنها نجسة، وعدوا كل من لم يحكم بما أنزل الله كافراً... وغاب عن أذهانهم أن هناك كفاً دون كفر، وشركاً دون شرك، ونسوا أن الزاني حين زنى لم يُحكم عليه بالكفر، وبقيت الجماعة على هذه الحال، حتى يسّر الله للجماعة الأخ محمد أبو طير، والذي أعاد الميزان إلى طبيعته²⁷.

ويتحدث عن تأسيس الجماعة الإسلامية في سجن الخليل، حيث أسس الأخوان أحمد العواودة، وأحمد النمورة (الجماعة الإسلامية). وكان عددها لا يزيد على ستة أشخاص، وواجهتهم صعوبات جمّة، وأوذوا من حركة فتح، ودليل ذلك قول جمال الشوبكي: لن نسمح بوجود أية جماعة خارج إطار م.ت.ف، مهما كلف الثمن²⁸.

وفي معتقل جنين، شكّل الأخ الشهيد نصر جرار²⁹ الجماعة الإسلامية، ولاقت ما لاقتها الجماعات الأخرى، من الأذى والضرب والمعاملة السيئة من حركة فتح، وقد ابتدأت سنة 1978، وبرز عداء الشبيبة لطلائع الجماعة الإسلامية، وكان من أبرز المعادين محمد سلمان شديد من مخيم اليرموك في سورية، وسمير صبيحات من رمانة جنين، وعارف خطيب من حزما، الذي حاول منع أذان الفجر في سجن جنين، وقال للأخ نصر جرار كلمة لا تُنسى: "إن أتممت الأذان، لأدعسّن على لحيتك بالكندرة". وضربت الجماعة جذورها رغم أنوف الأقرام، وها هي الجماعة اليوم قد وصلت في عددها إلى 28 مجاهداً³⁰.

²⁷ محسن ثابت، مرجع سابق، ص 12.

²⁸ المرجع نفسه، ص 13-14.

²⁹ نصر خالد جرار (1958-2002): ولد في وادي برقين قرب مدينة جنين. اعتقل لمدة عشرة أعوام سنة 1978، بعد إلقاء مولوتوف Molotov على حافلة صهيونية، وهو أحد مؤسسي الجماعة الإسلامية في السجون. اعتقل عدة مرات بعد خروجه من سجنه الأول لدوره القيادي في حركة حماس، واعتقل في سجون السلطة الفلسطينية. مع اندلاع انتفاضة الأقصى وفي سنة 2001، بترت ساقه ويده بعد انفجار عبوة كان يدها. بعد قرار قوات الاحتلال باجتياح مناطق السلطة الفلسطينية، خرج ومجموعة من مقاتلي القسام في جنين لضرب العدو من خارج المدينة، واستشهد بعد معارك خاضها تغطية على انسحاب إخوانه المجاهدين في بلدة طوباس في 2002/8/14.

³⁰ محسن ثابت، مرجع سابق، ص 14.

ذهبت والأخ صبحي إلى مسلم الدودة من حلول، وهو الناطق باسم السجن، وتحدث إليه صبحي بأكثر من صفة، بصفة الحقوق، بأن لنا حقّ في تجميع أنفسنا في غرف خاصة بنا، ولأن لنا إخوة في الأقسام عند التنظيمات، كل اثنين في إكس، والإكس غرفة صغيرة لا تتسع إلا لاثنتين.

وتحدث إليه بصفة القرابة والبلديات، وبصفة أبناء المجموعة التي كان الأخ صبحي قائدها، فكان قرار السجن بتنظيماته على لسانه: أنه لا في الحال، ولا في المستقبل، لن نسمح لكم بالتجمع، ولن نقبل بجماعة إسلامية على طراز جماعة عسقلان. فقلت له: ولماذا؟ قال: هذا قرار التنظيمات، وأنتم تشكلون خطراً علينا، فقلت له: غرف العار التي امتلأت بالجواسيس، الذين خرجوا من بين ظهرانيكم، سمحتم لهم بالتجمع، وتعملون على استيعابهم. أما نحن، فلأننا أبناء جماعة إسلامية، وما اعتلى هذا البنيان إلا على أرض طاهرة أساسها التقوى، وتقولون لا حيز لنا بينكم، وصدق الله العظيم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾³¹. والمؤلم أن الأمور لم تقف عند هذه النقطة، بل تطورت وحدثت أحداث عظام خلال سنة 1983.

أوصدت الأبواب أمامنا، والخيارات الحلو فيها مرّ، وحملت التنظيمات حملتها علينا، ومن قبل فيما بيننا وبينهم حواجز هيات أن تزول. واجتمع رأينا في القسم الذي نحن فيه أن نبعث إلى إخواننا في الأقسام الأخرى برسائل أولها: نطلب منهم أن يخولونا في الحديث عنهم، وباسمهم. فاستجابوا لذلك، بعد أخذ ورد منهم، وكانت فرصة لنا ولهم أن نجتمع بعد هذه السنين من العزل، وأن يخرجوا على سياسة العزل التي عانوا منها طويلاً، بواقع فرضته حركة فتح نيابة عن التنظيمات. وكان الرأي فيما بيننا جميعاً أن نخرج بأغراضنا من جميع الغرف التي نقيم فيها، وأن نشكل أزمة لإدارة السجن وللتنظيمات، حتى يستجيبوا لموقفنا، وحقنا في التجمع. وما كان منا إلا أن حملنا أغراضنا، وجلسنا بها في ساحة "المردوان"، وقلنا للتنظيمات إننا لن نعود إلا إلى غرف تجمعنا جميعاً. وانتهى بهم الموقف أن فاضوا إدارة السجن على خروجنا إلى الزنازين، فكانوا هم وإدارة السجن علينا.

أعود وأقول إن حياة الاختلاط في غرف التنظيمات مزعجة جداً، ففي الغرف من يدخن، وهذا لا يطاق. وأيام هذه المحنة كانت سماعات راديو الإدارة مزعجة جداً، وكان

³¹ القرآن الكريم، سورة النمل، آية 56.

مفروضاً علينا أن نطرب مع أم كلثوم وغيرها، وكان ممنوعاً علينا أن نلتقي إخواننا، والتنقل بين الأقسام على مزاج فتح أكثر من التنظيمات الأخرى أو الإدارة.

في الزنازين عشنا شهراً تقريباً، وقد اجتمعنا من جميع الأقسام بمجموع عشرين مجاهداً، ولحق بنا من سجن غزة، أخوان كريمان هما أبو إسماعيل الغرباوي، وأخوه ظافر الغرباوي. وقال لهما الأخ جبر عمار، وهما على معرفة به: اذهبا إلى الشيخ أبي طير وقولا له: نحن من قبل جبر عمار، فرحبنا بهما وكتب الله لهما الأجر في هذه المحنة.

ضاقت إدارة السجن من سياسة الأمر الواقع، ومن الخروج عليها وعلى فتح، وحاورونا للرجوع إلى حيث كنا، ”وكأنك يا أبا زيد ما غزيت“. وهذا الحوار تم بتنسيق مع الناطق باسم السجن مسلم الدودة، فقلنا للإدارة: لن نرجع إلا إذا حصلنا على حقوقنا. ومرة أخرى حاورونا، وأخيراً جاءتنا الإدارة برجالاتها، وبالغاز والهرات، وبالقيود والكلبشات، ودخلنا معهم في مواجهة، ضربناهم وهربوا منا، وانهالت العصي علينا، وبالغاز أعموا أبصارنا واختنقنا. وأذكر أن الأخ أبا بكر محمد الهسي تناول حذاءه بيمينه وضرب به رأس أحد الضباط، وكان قد فقد يده اليسرى في انفجار خارج السجن.

لقد قيّدونا، والكثرة غلبت الشجاعة، وداسوا على مصاحفنا، وحطموا نظاراتنا، وأوجعونا ضرباً، ونقلونا إلى إكسات معدة لنا في السجن نفسه، كل إكس لاثنين، وألقوا بنا أرضاً نفترش الأرض ونلتحف السماء... وجميع التنظيمات تسمع صراخنا، والغاز الذي ضربونا به، وحالات الاختناق التي حصلت بيننا، على مشهد ومسمع من هذه التنظيمات... وما حركوا ساكناً، بل إن إذاعة الثورة من سورية، وصلتها الأخبار عن مواجهة بين الفدائيين وإدارة السجن، ونحن دفعنا الضريبة، والثوار حصدوا النتيجة... هذا ما حصل معنا، وبقينا في هذه الإكسات ستة أشهر، ما خرجنا منها أبداً، لا للنزهة اليومية ولولساعة، ومنعنا الخروج للاستحمام بالماء الساخن، حُرمننا من حقنا في الشراء من ”الكانتينا“³²، ومُنعنا من زيارة الأهل. والثوار بعد كل هذا يبعثون لنا برسائل، يفتتحونها بأخوة القيد والمعاناة، وأي أخوة، وقد أسلمتمونا للصهاينة، وتريدون منا العودة بعد كل هذا إلى مواقعنا الأولى، ويا ليتهم فيما بعد فاضوا الصهاينة بهذا النفس وما فرطوا؟!!

³²كانتينا: بقالة السجن، تتوفر فيها السلع التي تسمح بوجودها مصلحة السجون الصهيونية، ويحدد مخصص مالي شهري للأسير، من أجل الاستخدام الشخصي داخل السجن وشراء حاجياته، وأسعارها باهظة بالمقارنة مع سعر السوق. انظر: فهد أبو الحاج، مرجع سابق، ص 58. [المحرر]

وفي الإكسات، التي أقمنا فيها، توجد شبابيك مطلة على الساحة التي كنا نفور ونتنزه فيها، وكنا نطل على شبان القسم، ومنهم من ينظر إلينا وهو يتوجع لحالنا، ويشعر بأننا ظلمنا. ويقول الأخ نبيل دعنا (أبو عبد الله)، حفظه الله، ويومها كان تنظيمياً حديدياً، وعين ساهرة من أجل التنظيم، يقول: سألت أبا محمد عباس (عباس محمد صالح حامد)، من بلدة سلواد، وله تجربه معنا من أيام عسقلان، يا أبا محمد، هل تظن أن هؤلاء الناس — بالطبع هو يعنينا نحن — من الممكن أن يتراجعوا عن موقفهم؟ قال له عباس: يموتون ولا يتراجعون عن موقفهم. وفعلاً ما تراجعنا، بل إدارة السجن غلبت على أمرها، ونقلتنا إلى عسقلان ثانية. نعم خرجنا من سجن عسقلان ثلاثة، وعدنا إليه باثنين وعشرين مجاهداً. أما الأخ نبيل دعنا، فذات مرة، والأخ فايز عوض من جباليا واقف إلى جانبي نظر من الشباك على الساحة، والشبان في صلاة العصر، فقال لي الأخ فايز: هل تلاحظ شيئاً؟ قلت له نعم، ملاحظتي هي أن الأخ نبيل دعنا لأول مرة يصلي مع الشبان، وبتجرد قلت: لي فيه نظرة، وإني لأرجو أن يكون له مستقبل بيننا، وقلت للأخ فايز: نبيل ما وفرنا في الرصد والتشويش علينا، لكن فيه خير. وأتت الأيام، ولحق بركب الجماعة، وأقبل على حفظ كتاب الله، حتى أتم حفظه، وله قصة سنتحدث عنها إن شاء الله.

كيف استقبلنا سجن عسقلان ثانية؟

بعد أن قررت إدارة بئر السبع نقلنا إلى عسقلان ثانية، حزمنا أمتعتنا وحملتنا "البوسطة" حتى وصلنا إلى ساحة عسقلان بعد التفتيش المعتاد. وكنا نتبادل الرسائل مع إخواننا في السجون، وعلى الخصوص سجن غزة مع الأخ جبر، وسجن عسقلان مع الأخ سعيد قاسم (أبو عبد الله)، وبعث سعيد برسالة إلى الأخ حافظ الدلقموني في دمشق، وقال له: إن إخوانك في بئر السبع محاصرون في شعب أبي طالب، ولعل شعب أبي طالب أرحم من هذا السجن، فالسجن فيه سجنان.

وصلنا إلى ساحة عسقلان، واستقبلنا إخواننا بعاطفة جياشة، والعاطفة بيننا عارمة، ومحروم منها كثير من الناس، وملأنا الفراغ الموجود في السجن، وفرضت علينا التنظيمات مقاطعة تامة، خاصة نحن القادمين الجدد، وكان ذلك في أواخر سنة 1983.

في [تموز/ يوليو] سنة 1984 افتتحت مصلحة السجون سجن جنيد في نابلس، ونقلت إليه كل السجناء الأمنيين من بئر السبع، ليكون سجن بئر السبع للمدنيين فقط. وكان عسقلان بموقعه على طريق البوسطات، محطة من محطات النقلات، فجاءنا من

بئر السبع الأخ نبيل دعنا والأخ جبريل الرجوب وآخرون. وبعد حين رحلت الإدارة سجناء الضفة، أو من تبقى منهم إلى سجن جنيد. بقي عندنا في السجن الأخ نبيل دعنا، وهو لا يزال على دين تنظيمه، لكنه التزم بالصلاة وحافظ عليها. ومنهم من يصلي، ولا يخرج لصلاة الجمعة، خوفاً أن تلتقي الوجوه في صلاة الجمعة، فيؤثرون البقاء في الغرف على الخروج لصلاة الجمعة. أما نبيل، فما غاب عن صلاة الجمعة، لكنه أول من يغادر الساحة خوفاً من السلام عليه. وذات مرة قلت له: أريد الحديث معك حتى ترى أن حكمك علينا قاسٍ، وأن انطباعك عنا خاطئ، فأبدى استعداداه لذلك. مع أن التعبئة ضدنا لا تتوقف، وفي كل يوم جمعة نلتقي، والحديث يأخذ منا ساعة وأكثر، حتى تكشفنا له حقائق كثيرة. وذات مرة قال لي: بينكم جواسيس، قلت له: عليك بالبينة، ومن تثبت عليه الجاسوسية ندينه ونعريه، وإن كنتم لا تثقون بتحقيقاتنا فلجنة منا ومنكم، وقولوا لنا من هذا الجاسوس الذي بيننا؟ فنقل الصورة لتنظيمه، لكن تنظيمه ما قدم شيئاً، ولا أتانا بمعلومة أو بينة، وما هي إلا اتهامات. فقد كانت التنظيمات على اختلافها، تعبئ عناصرها وأفرادها ضدنا، بتهمة العمالة لإدارة السجن والخيانة، والمصطلحات التي مرر ذكرها. والذي يعينني هو أن يعرف الحقيقة، ويشاء الله أن تتعمق صحبتنا، وفي كل يوم أنتظره وينتظرنني، حتى ضاق تنظيمه بهذه الصحبة، فقالوا له: لا تمش مع الشيخ أبو طير. قال لهم: ولماذا؟ قالوا: هكذا، قال لهم: هل هو جاسوس حتى لا أكلمه؟ قال أحدهم، وأظنه محمود طويط، وهو أردني من الرمثا: الذي يقول عن الشيخ أبو طير جاسوس هو الجاسوس. هذا كلام أخي نبيل لي عن تلك الأيام. وتتوطد العلاقة بيننا وأنصح بقراءة الكتب التي أختارها له، ويطلبها من المكتبة، ولكن كما ذكرت من قبل، التسويف والحرب ما زالت قائمة على الكتاب الإسلامي، وبالخاصة من نبيل وهو صاحب شخصية، يصل إلى ما يريد، قلت له إقرأ المعالم لسيد قطب، فقرأه وانفتح على الكتاب الإسلامي، وحفظ القرآن، وقال لهم فيما بعد هذا فراق بيني وبينكم.

نعم، تمّ الفراق، وتمت المفاصلة، ولحق بركب الجماعة الإسلامية، بعد أن قال له التنظيم على لسان أحد مسؤوليه: اذهب وسلم نفسك لإدارة السجن، ولا أن تلتحق بركب الجماعة الإسلامية، وبلا تعليق.

لكن عندي استدراك عن سجن جنيد، ورحيل بعض من إخواننا من أبناء الجماعة إلى هناك، وكيف تعاملت معهم التنظيمات، حيث رفضوا دخولهم للأقسام... وحضر معهم إخوه من سجن نابلس القديم، وانتهى الموقف بضرب إخواننا بالغاز ثم أعيدوا إلى سجن نابلس القديم.

الشيخ أهد ياسين وإخوانه:

عدت إلى سجن عسقلان، وعدت إلى خطبة الجمعة، وكان الشيخ أحمد ياسين ومجموعته من الإخوة في التحقيق؛ الشيخ في تحقيق عسقلان، وآخرون في تحقيق غزة. وكانت المجموعة تُعد العدة لانطلاق العمل الجهادي ضد المحتل، لا كما روجها "الاحتلال من جهة والفصائل من جهة أخرى"، أن السلاح الذي ضبط عند مجموعة الشيخ ياسين، كان لتصفية الشخصيات الوطنية، والحاكم العسكري المحتل يتصل بالدكتور حيدر عبد الشافي وبعض الشخصيات، يهنئهم بالسلامة... ومن أين تتلقاها؟

وفي هذه الأيام من سنة 1984 جاءنا من سجن غزة الأخوان محمد نصار وناصر مصلح... أما الأخ محمد نصار، فهو معروف على صعيد العمل الجهادي، واحتضنته داخل السجن، وكان اهتمامي به كبيراً؛ لأنه من قرية بيت دراس المشهود لها بالعناد، وكما يقولون: "فِلْفَلَة" في اللباقة والرجولة، على الرغم من كونه دون الثامنة عشرة من عمره... وكان للأخ جبر عمار في سجن غزة، قبل أن يخرج في التبادل، فضل في تربيته، وهما مهجران من بيت دراس، وخرج الأخ محمد معنا في تبادل 1985. وتبادلنا الزيارات في بيوتنا ما بين القدس وغزة، ومن خلاله تعرفت على كثير من الإخوة. تعرفت على الأخ المجاهد الشهيد محمود المبحوح³³، وكنت آتية على كراج له لتصليح السيارات اسمه اليرموك، وتعرفت على أبي النمر محمد الشراطة³⁴، وكان يعمل حارساً في الجامعة الإسلامية، وجمعتنا السجون كثيراً والحمد لله.

³³ محمود عبد الرؤوف المبحوح (1960-2010): ولد في مخيم جباليا في قطاع غزة لعائلة هجرت من قرية بيت طيما سنة 1948. متزوج وله أربعة أبناء. حصل على دبلوم الميكانيكا. عضو إحدى المجموعات الأولى لكتائب القسام بقيادة محمد الشراطة المسؤولة عن خطف جنديين صهيونيين. في الأول من نيسان/ أبريل 1989، بدأت مطاردته من قبل الاحتلال بعد انكشاف أمر مجموعته فخرج إلى مصر. اعتقل في مصر وأطلق سراحه وأبعد إلى ليبيا. انتقل من ليبيا إلى دمشق ليبدأ مرحلة جديدة في خدمة الجهاز العسكري لحركة حماس. اغتالته مجموعة كبيرة من الموساد الصهيوني في أثناء تواجده في دبي في 2010/1/19.

³⁴ محمد يوسف الشراطة (1957-): ولد في مخيم جباليا شمال قطاع غزة لعائلة هجرت من بئر السبع سنة 1948. متزوج ولديه أربعة من الأبناء. اعتقل عدة مرات في سجون الاحتلال. انتظم في صفوف المجموعات العسكرية الأولى لحماس، واعتقل في 1989/5/9 وحكم بالسجن ثلاثة مؤبدات لمشاركته والشهيد محمود المبحوح في خطف الجنديين آفي ساسبورتس Avi Sasportas وإيلان سعدون Ilan Sa'adon، وفي عدد من العمليات ضد الصهاينة. حصل على بكالوريوس تاريخ من الجامعة العبرية في أثناء وجوده في السجن، خرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

وأما الأخ الآخر ناصر مصلح، فهو مهجّر أيضاً، فوالده وأمه من اللد، ويقيم في معسكر البريج، جاءنا كذلك من سجن غزة من عند الأخ جبر، وله يد في تربيته. كان ناصر من فتح، وحباه الله بالذكاء. وقبل قدومه على زنازين عسقلان أقدم على قتل جاسوس في السجن، وهو كذلك دون الثامنة عشرة من عمره. واستفاد في فترة الزنازين بحفظ القرآن كاملاً، وقراءة تفسير الظلال لسيد قطب. ولما أنهى عقوبة الزنازين دخل ساحة السجن، وعلى غرفة الجماعة، ومن قبل الأخ محمد نصار، وهو من فتح كذلك. وكادت المشكلات تتفجر من جديد، فتح تقول هؤلاء عناصر، والخروج من الأزمة يعتمد على الشخص نفسه، محمد نصار وبقوة قال لهم: لا لكم عندي، ولا لي عندكم، وأنا ما ولدت على اسم فتح، وحسم الأمر. وأما الأخ ناصر... فجالهم بهدوء، وبرّد الموضوع بهدوء ودون إثارة، وقال لهم وهو صلب الإرادة لكنه مرن في التعامل: أنا هنا بين الإخوة، وتريثوا علي، فقبلوا منه ذلك. وانتهى التريث أن بقي بيننا. ورأيت فيه نبوغاً وثقة، وقلت له تقدم لخطبة الجمعة. وفي يوم جمعة من الجمع فاجأ الناس بأن وقف فيهم خطيباً، وكنت أدعو الله له، وأقول: يا الله، يا الله، اجعل الحق على لسانه سلسبيلاً؛ لأنني كنت خائفاً أن يُرتج عليه، وقد اختار أن يرتجل دون قصاصة ورق. وكان رائعاً في القائه... وفي موضوعه، وعن ظهر قلب موضوع خطبته من الظلال، وأعرف مواقع ذلك، ونجح والحمد لله. وخرج في تبادل 1985، وكان قواماً صواماً، ولا أظن أن أحداً من إخواني، قد فاته قيام الليل في السجن حتى المريض منهم.

Sidi 'Umar: The Memoirs of Muhammad Abu Tair About Resistance and His 33 Years in the Israeli Jails

هذا الكتاب

يسجل هذا الكتاب ذكريات مسيرة طويلة لشيخ مجاهد، وشخصية إسلامية وطنية، برزت في سبعينيات القرن الماضي كأحد رموز المقاومة من أبناء حركة فتح. ثم أصبحت أحد أبرز مؤسسي الجماعة الإسلامية وحركة حماس في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

في هذا الكتاب، يشرح الشيخ محمد أبو طير تجربة 33 عاماً في سجون الاحتلال، ومواقفه ومواقف الحركة الأسيرة من القضايا الوطنية وهموم الأمة المختلفة. ويسجل جزءاً مهماً من تاريخ الأسرى في سجون الاحتلال، وخصوصاً أسرى حماس، وما رافق ذلك من معاناة في السجون ومواجهات مع السجناء. كما يتعرض لعلاقات أسرى حماس بالأسرى من باقي الفصائل الفلسطينية، وما رافق ذلك من حالات تعاون أو شدّ واحتكاك.

وتبرز في هذه الذكريات جوانب من تجارب العمل العسكري المقاوم الذي خاضه أبو طير من خلال فتح، ثم على مدى زمني أوسع من خلال حماس. بالإضافة إلى تجربته في العمل السياسي، وانتخابات المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية.

ويسر مركز الزيتونة طباعة هذا الكتاب الذي يخط شهادة وحكاية الشيخ أبي طير، شيخ بيت المقدس، الذي عُرف بين إخوانه بـ"سيدي عمر"؛ ليكون أحد أهم ما صدر من كتب في تجربة الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

ISBN 978-9953-500-62-1



9 789953 500621



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations

ص.ب. 14-5034 بيروت - لبنان

تلفون: +961 1 803 644 | فاكس: +961 1 803 643

info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

